

دار الإمام أحمد

بدائع الحكم

بذكر

فوائد حديث "تداعى الأمم"

لفضيلة الشيخ

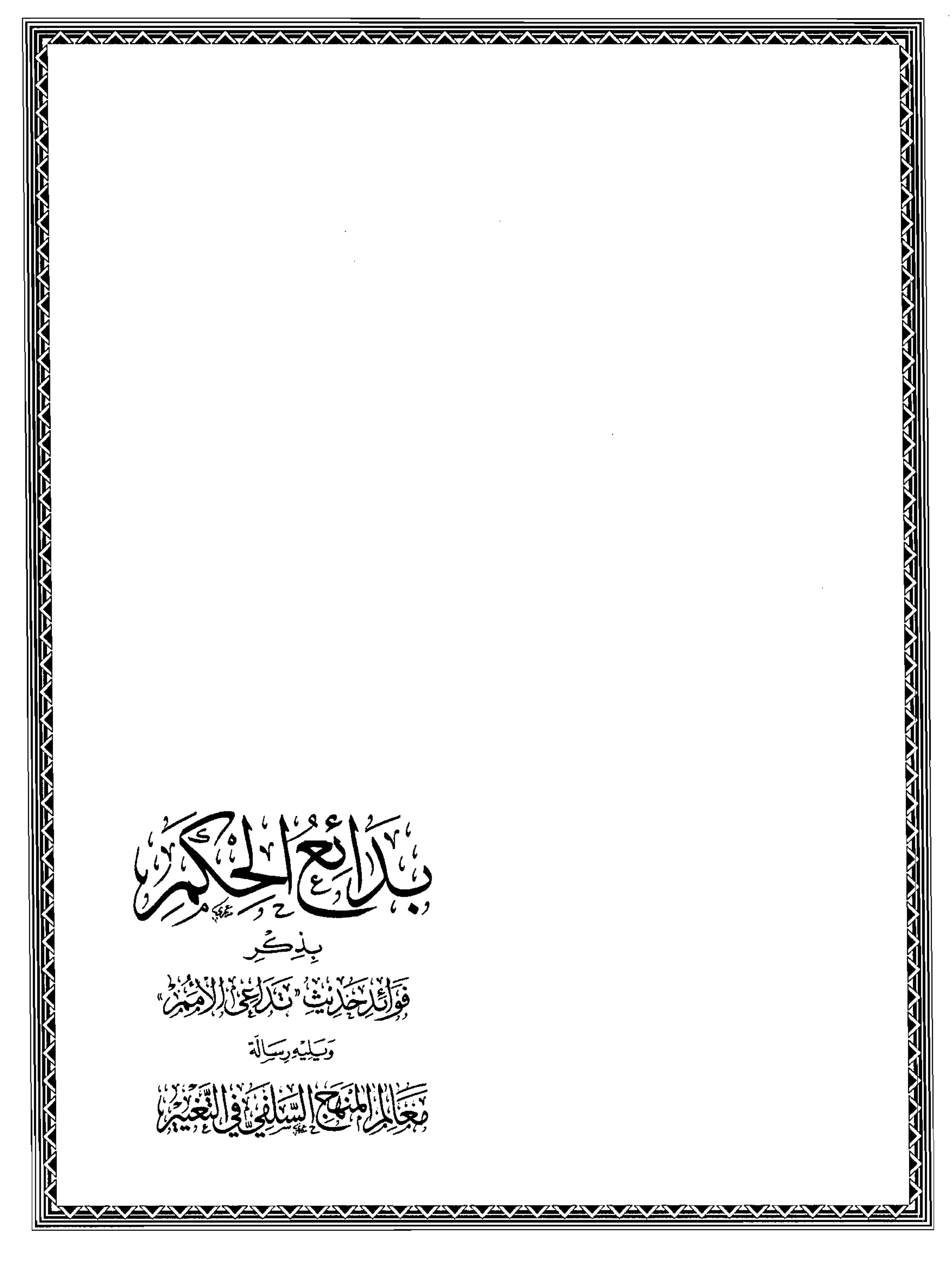
أبي أسامة سليم بن عيد الهلالي
السلفي الأثري

ويليه

معالم المنهج السلفي في التغيير

للإمام العلامة محمد ناصر الدين الألباني


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



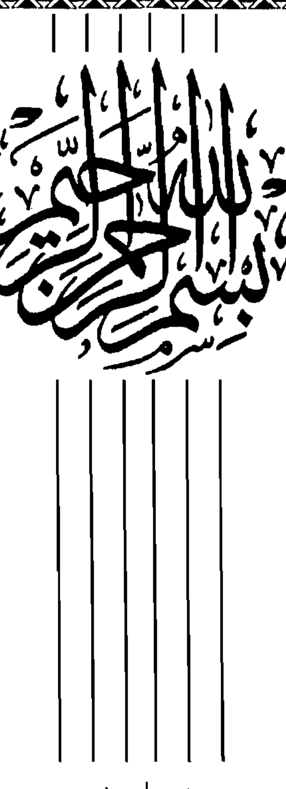
بدائع الحكم

بذكر

فوائد حديث «بدأ على الأمم»

ويليه رسالة

معالم المنهج السلفي في التغيير



١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

رقم الإيداع: ٢٠٠٤/٧٩٩٨م



٢١ شارع مكة - تقسيم مكة - صعب صالح - منشية التحرير - جسر السويس - القاهرة

٦ شارع عزيز فانوس - منشية التحرير - جسر السويس - القاهرة - جمهورية مصر العربية

هاتف: ٢٤١٤٢٤٨ / ٠٠٢٠٢ فاكس: ٦٣٦٥٦٣٨/ ٠٠٢٠٢ محمول: ٠١٠٦٠١٤٩٧٨/ ٠٠٢

E-Mail:Dar_Alemam_Ahmad@hotmail.Com



تأليف

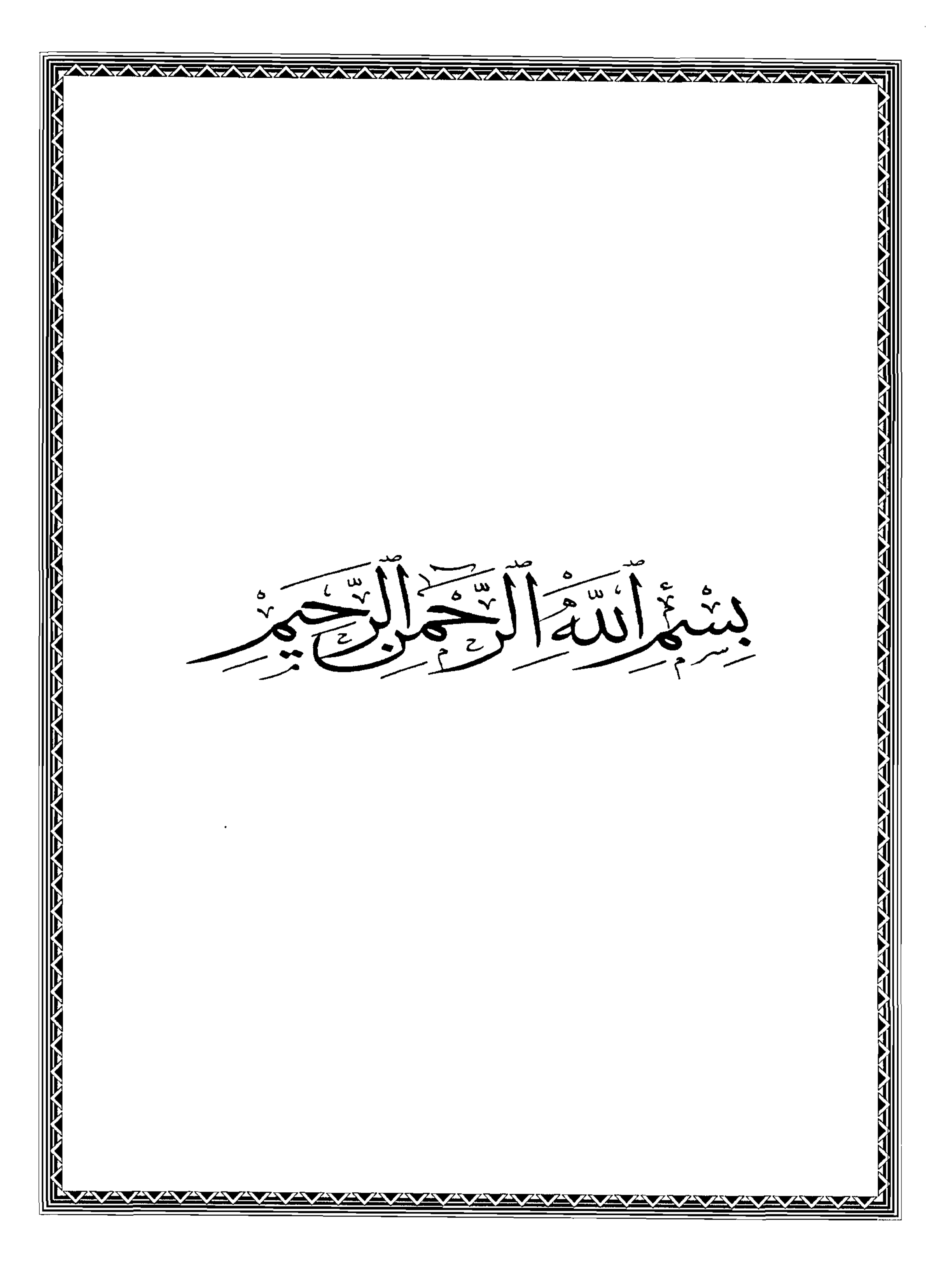
سليم بن عيد الهلالي
السلفي الأثري

ويليه رسالة



للإمام العلامة محمد ناصر الدين الألباني




بسم الله الرحمن الرحيم

قبس من التنزيل

﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧١-١٧٩].

فاتحة القول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله؛ نَحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله؛ فلا مضلَّ له، ومن يضلل؛ فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له.

وأشهد أن مُحمَّدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن أمتنا الإسلامية -وبخاصة فِي هذه الأيام- تعانِي من ضعف وتَمزق شديدين، جعلاها فِي ذيل رَكْب الأمم، وحلَّت بِها مصائب متلاحقة؛ فَقَدَت معها: أمنها، وأمانَها، وطمأنينتها، وكثيرًا من ديارها وأموالها.

ولكننِي عندما أتدبر كلمات الوحي -قرآنًا وسنة- أرى هذه الأحوال محفورة بحروف بارزة لا تخفى على من نظر إلَى حقائق الأشياء وبواطن الأمور، ولَمْ يخدعه سراب الظاهر النفاذ، ولَمْ يعشه تباين الألوان المزوجة الأخاذ؛ فقد دبّ الوهنُ إلَى أوصال هذه الأمة؛ فتداعت عليها الأمم، وتكالبت عليها قوى المكر العالمي.

وهذه الحال وردت الإشارة إليها، والتنبيه عليها -صريحة دون لبس، واضحة جلية دون غموض، مدوية عالية دون ضجيج يثير النقع؛ فيحجب الرؤية- فِي حديث ثوبان رضي الله عنه مولى الرسول ﷺ: **«يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ»**.

ولكن من العجب -والعجائب كثيرة- أن يطعن بعض الخلوف فِي صحة الحديث؛ بدعوى: أنه يهدف إلَى حَمل الأمة على الرِّضا بحالة الذُّلّ والصَّغار، والإقامة على الهوان، وعدم العمل على تغيير واقع الناس الأليم(!)

ولذلك؛ رأيت بيان صحته فِي ضوء قواعد الصناعة الحديثية، والكشف عن معانية السامية، وأهدافه السامية، ومعانيه السامقة؛ بشرح وسيط: يربط واقع الأمة الإسلامية بسنن الله الجارية الَّتِي بَيَّنَها كتاب ربِّنا، ووضحتها سنة رسوله ﷺ؛ لنعود جميعًا إلَى النَّبْع الصافي الذي تضلع منه الصدر الأول من السلف الصالح: الصحابة والتابعين لَهم بإحسان؛ فكانوا خير أمة أخرجت للناس، والأمة الوسط الَّتِي اختارها الله؛ لتكون شهداء الله فِي أرضه.

وسميته: "بدائع الحكم بذكر فوائد حديث تداعي الأمم".

راجيًا المولى ﷻ أن يَجعله نصرة لدينه وذبًّا عن سنة رسوله ﷺ، وأن يدخر لِي ثواب ذلك إلَى يوم لقائه: ﴿**يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

وعلى الله قصد السبيل.

وكتبه

أبو أسامة

سليم بن عيد الهلالي السلفي

ضحى ثلاثاء العافية لعشر بقيت من شهر

رجب مضر الفرد الأصم من سنة ألف

وأربعمائة وواحد وعشرين من هجرة رسول

الله ﷺ مُحمَّد بن عبد الله فِي عمان البلقاء

عاصمة جند الأردن من بلاد الشام المحروسة

نصُّ الحديث

عَنْ ثوبانَ ﷺ مَولى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفقٍ؛ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا** (وفِي رواية: **قَصْعَتِهِم**) (وفِي أخرى: **عَلَى القَصْعَةِ أَكَلَتُهَا**).

قال: قُلْنَا: [يَا رَسُولَ اللهِ] أَمِنْ قِلَّةٍ بنا (وفِي رواية: نَحْنُ) يَوْمَئِذٍ؟

قال: «[**لا**] [وفِي لفظ: **بَلْ**] **أَنْتُم يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ** (وفِي رواية: **أَكْثَرُ**) [**عَدَدِكُمْ**]، **وَلكِنْ تَكُونُون** (وفِي رواية: **وَلَكِنَّكُمْ**) **غُثاءٌ كَغُثْاءِ السَّيْلِ؛ يَنْتَزِعُ المَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُم** (وفِي رواية: **وَلَيَنْتَزِعَنَّ اللهُ مِن صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ**) **وَيَجْعَلَ** (وفِي رواية: **وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ**)، (وفِي رواية أخرى: **وَلَتَعْرِفَنَّ**) **فِي قُلُوبِكُم الوَهْنَ** ».

قالوا: [يَا رَسُولَ اللهِ]! وَمَا الوَهَنُ؟

قَالَ: « **حُبُّ الدُّنْيَا، وكَرَاهِيَةُ المَوْتِ** (وفِي رواية: **وَكَرَاهِيَةُ الآخِرَةِ**) ».

توثيق الحديث وتخريجه

صحيح: أخرجه الإمام أحمد فِي "المسند" (٥/٢٧٨) واللفظ له. وابن أَبِي الدنيا فِي "العقوبات" (٢١-٢٢/٥).

والطبراني فِي "الكبير" (٢/١٠٢-١٠٣/١٤٥٢)، والرواية الثانية، والرابعة، والخامسة، والسابعة، والتاسعة، والزيادة الثانية، والثالثة له.

وأبو نعيم فِي "حلية الأولياء" (١/١٨٢).

ومُحمَّد بن مخلد البزار فِي "حديث ابن السماك" (ق١٨٢-١٨٣).

من طرق عن المبارك بن فضالة، عن مرزوق أبِي عبد الله الحمصي، عن أبِي

عبد الله الحمصي، عن أبِي أسْماء الرحبي عنه به.

قال شيخنا الإمام أسد السنة الهمام العلاَّمة أبو عبد الرحمن الألباني -رحِمه الله- فِي "الصحيحة" (٢/٦٤٧-٦٤٨): "وهذا إسناد جيد؛ رجاله ثقات، والمبارك إنَّما يخشى منه التدليس، أما وقد صرح بالتحديث، فلا ضَيْرَ منه".

وأخرجه أبو داود (٤/١١١/٤٢٩٧)، والرواية الثالثة، والخامسة، والسادسة، والسابعة، والزيادة الثالثة، والخامسة له.

والبغوي فِي "شرح السنة" (١٥/١٦/٤٢٢٤)؛ والرواية الخامسة، والسادسة، والثامنة، والزيادة الأولى، والثانية له.

وابن عساكر فِي "تاريخ دمشق" (٨/١٩٣) من طريق بشر بن بكر.

والرويانِي فِي "مسنده" (١/٤٢٧-٤٢٨)؛ والرواية الأولى، والثالثة، والزيادة الرابعة له من طريق يَحيَى بن حمزة.

والطبراني فِي "مسند الشاميين" (١/٤٣٥/٦٠٠)، والمزي فِي "تَهذيب الكمال" (١٣/٤٦-٤٧) من طريق صدقة بن خالد.

والطبراني فِي "مسند الشاميين" (١/٤٣٥/٦٠٠) من طريق مُحمَّد بن شعيب ابن شابور.

أربعتهم: عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن أبِي عبد السلام صالح بن رستم عنه به.

قال شيخنا -رحِمه الله- فِي "الصحيحة" (٢/٦٤٧): "وهذا إسناد لا بأس به فِي المتابعات؛ فإن ابن جابر ثقة من رجال "الصحيحين"، وشيخه أبو عبد السلام مجهول".

وأخرجه الطيالسي فِي "مسنده" (٢/٢١١/٢٧٥٨) - "منحة المعبود".

والبخاري فِي "التاريخ الكبير" (٦/٣٥٣) من طريقين عن أبِي الأشهب، عن عمرو بن عبيد التميمي به.

قلت: وهذا إسناد ضعيف؛ عمرو بن عبيد؛ ذكره البخاري فِي "التاريخ الكبير"، وابن أبِي حاتم فِي "الجرح والتعديل"، ولَمْ يذكرا فيه جرحًا ولا تعديلاً، ولا راويًا عنه إلا أبا الأشهب، ولَمْ يوثقه إلا ابن حبان على عادته فِي توثيق الْمَجاهيل، فهو مجهول العين.

قلت: فالحديث صحيح لغيره.

وله شاهد من حديث أبِي هريرة ﷺ:

أخرجه أحمد (٢/٣٥٩): ثنا أبو جعفر المدائني: أنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي، عن أبيه حبيب بن عبد الله، عن شبيل بن عوف، عن أبِي هريرة به.

قلت: وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان:

- **الأولى**: حبيب بن عبد الله مجهول؛ كما فِي التقريب.
- **الثانية**: ابنه عبد الصمد ضعيف؛ كما قال أحمد، وأبو حاتم، وأبو زرعة.

والحديث ذكره الهيثمي فِي "مجمع الزوائد" (٧/٢٨٧)، ونسبه لأحمد، والطبرانِي فِي "الأوسط" وقال: "إسناد أحمد جيد" (!).

قلت: وقد وهم -رحِمه الله- فيه؛ لما بينته -آنفًا-.

قال الشيخ أحمد شاكر -رحِمه الله- فِي تحقيق "المسند" (١٦/٢٩٠/٨٦٨٩): "إسناده حسن؛ لولا جهالة حال حبيب بن عبد الله".

وبهذا تَبَيَّنَ تَبَيُّنَ الصبح لذي عينين: أن الحديث صحيح من جهة الإسناد، وهو حجة الله البالغة بيننا وبين العباد.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

الفائدة الأولى:
الكفار بعضهم لبعض عدو

لقد أخبر رسول الله ﷺ بأن الكفار: "أمم" فقال: «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ**». وهذا إعلام عن حالهم ومآلهم؛ فهم: مختلفون؛ متفرقون، متعادون؛ متنابذون.

قال الله -تعالى-: ﴿**وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**﴾ [الروم:٣١-٣٢].

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في "تفسير القرآن العظيم" (٣/٤٤٣): "وهؤلاء كاليهود، والنصارى، والمجوس، وعبدة الأوثان، وسائر أهل الأديان الباطلة، ممَّا عدا أهل الإسلام؛ كما قال -تعالى-: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ**﴾ [الأنعام:١٥٩]. فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومُثُلٍ باطلة، وكل فرقة تزعم أنَّهم على شيء".

وقال -سبحانه-: ﴿**وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [آل عمران:١٠٥].

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في "تفسير القرآن العظيم" (١/٣٩٨): "ينهى -تبارك وتعالى- هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضين في افتراقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم".

فهذه الآيات البينات تلتقي جُملةً وتفصيلاً مع تلك الدلالات الواضحات في تقرير: أن الكفار بعضهم لبعض عدو.

ودلالة ذلك تتجلى في الوجوه الآتية:

١- عدم التشبه بالكفار في اختلافهم وتفرقهم.

قال الله -تعالى-: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا**

وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى:١٣-١٤].

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في "تفسير القرآن العظيم" (١١٨/٤): "أوصى الله -تعالى- جميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف".

٢- أن أعظم سبب للاختلاف والتفرق؛ هو اتباع الأهواء والبدع والعوائد.

قال -تعالى-: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [الأنعام:١٥٣].

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في "تفسير القرآن العظيم" (١٩٧/٢): "أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة، وأخبرهم أنه إنَّما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله".

٣- أن داء الأمم في التفرق والاختلاف سيصيب هذه الأمة؛ كما أخبر رسول الله ﷺ في أحاديث الافتراق الصحيحة المستفيضة[١].

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في "تفسير القرآن العظيم" (٤٤٣/٣): "وهذه الأمة -أيضًا- اختلفوا فيما بينهم على نحَلٍ كلها ضلالة إلا واحدة؛ وهم: أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله، وبما كان عليه الصدر الأول: من الصحابة، والتابعين، وأئمة المسلمين من قديْم الدهر وحديثه؛ كما رواه الحاكم في "مستدركه" أنه سئل ﷺ عن الفرقة الناجية منهم؛ فقال: **«من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي»**[٢].

---

(١) انظرها مخرجة في كتابي: "نصح الأمة في فهم أحاديث افتراق الأمة".

(٢) **حسن لغيره**: كما بينته مفصلاً في كتابي: "درء الارتياب عن حديث: ما أنا عليه والأصحاب".

٤- أن اجتماع الأمة الإسلامية لا يكون إلا على كلمة سواء، وسبيل مستقيم؛ لتصير أمة واحدة من دون الناس.

وأما الاجتماع على عمومات مضطربة، ومقاصد شتَّى؛ فهو اقتداء بأهل الكتابين من قبلنا، حيث يراهم الناظر من وراء الجدر أمة واحدة، ولكنهم أوزاع متفرقون عن اليمين وعن الشمال عزين.

قال الله -تعالى-: ﴿**لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ**[(١)] **بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾ [الحشر:١٤].

---

(١) ما أخبر الله ﷻ عن اليهود وكيف يديرون صراعاتهم وقتالَهم مع المسلمين لا يزال يمثل الخطط الاستراتيجية لدولة اليهود التي سلبت بيت المقدس وأكنافه.

فالمستوطنات التي زرعوا بها أرض فلسطين: قرى محصنة؛ فقد اختاروا لَها مناطق نفوذ عالية مشرفة مسيطرة على ما حولها؛ فجعلوها في قمم الجبال.

وزيادة في تحصينها؛ فقد اتَّخذت حكومة اليهود قرارًا في سنة (٢٠٠٢م) ببناء جدار عازل وسور عال يتكون من جزئين: جدار وسياج، ويبلغ طوله حوالي ٨٠٠ كم، وهو عبارة عن قواعد خراسانية وهيكل من أسلاك ارتفاعه خمسة أمتار، ويوجد على جانبيه أسلاك شائكة، وحفرة يبلغ عمقها أربعة أمتار، وهو مزود بأجهزة استشعار الكترونية قادرة على كشف أي تسلل وإطلاق النار عليهم تلقائيًّا، وبمحاذاته طريق مكسو بالرمل الناعم بحيث يترك من يسير عليه آثار أقدام.

ويتكون (٨,٥كم) من السور من حائط خرساني قوي بارتفاع ثمانية أمتار موضوع عليه أبراج للمراقبة، ويحيط هذا الجزء بمدينة "قلقيلية".

وهذا الجدار العازل والسور الفاصل يفصل المدن الفلسطينية بعضها عن بعض بالكلية، ولن يبقى لأهل فلسطين إلا (٤٢%) من أراضي الضفة الغربية.

وهذا كله يؤكد المخطط الصهيوني لابتلاع أرض فلسطين المسلمة، ويقرر حقيقة اليهود، وأنَّهم لا يصبرون عند اللقاء، بل؛ يلوذون بالقرى المحصنة، ويقاتلون من وراء الجدر، وهم مختلفون، وإن ظن العوام السذج من المسلمين وكثير من السياسيين الحركيين أنَّهم جميعًا ... فهل من مدكر.

الفائدة الثانية :
أمم الكفر جميعها تعادي الإسلام وأهله ودعاته

على الرغم من عداء الكفار بعضهم لبعض إلا أنَّهم يجتمعون على حرب الإسلام وأهله ودعاته، ولذلك أخبر رسول الله ﷺ: أن أمم الكفر "تداعى" على حرب الإسلام والكيد لأهله.

قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٠١].

فأمم الكفر وأهل الشرك يوالي بعضهم بعضًا عندما يكون الإسلام هو العدو؛ كما قال -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال:٧٣].

وذلك: أنَّهم قد اختلفت أديانُهم، ولكن توحد مقصودهم من خدمة الشيطان، والقتال في سبيل الطاغوت؛ كما قال الله -تعالى-: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أُوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦].

وقال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في "تفسير القرآن العظيم" (٣٩٥/١): "يحذر -تبارك وتعالى- عباده المؤمنين من أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وما منحهم من إرسال رسوله.

ولذلك؛ فكلمة الكفار اجتمعت على حرب الإسلام، والكيد لأهله؛ كما قال الله -تعالى-: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة:٢١٧].

ودلالة ذلك تتجلى في الوجوه الآتية:

١- صراعنا مع أعدائنا صراع عقيدة ووجود، وليس صراع أرض وحدود.

إن حقيقة الصراع بين أمة الإسلام وأمم الكفر هو: الاختلاف فِي الدين والعقيدة، وليس كما زعم بعض الخلوف: أن صراعنا مع اليهود وغيرهم؛ لأسباب اقتصادية، أو من أجل الأرض.

عقد محمود عبد الحليم -مؤرخ جماعة الإخوان المسلمين- فصلاً تحت عنوان "فِي قضية فلسطين" فِي كتابه: "الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ"(١).

وتحدث عن لجنة أمريكية بريطانية مشتركة من أجل قضية فلسطين، وقد حضر "حسن البنا" اجتماعًا لَها فِي مصر، وألقى كلمة قال فيها: "والناحية الَّتِي سأتحدث عنها نقطة بسيطة من الوجهة الدينية؛ لأن هذه النقطة قد لا تكون مفهومة فِي العالم الغربي؛ ولِهذا؛ فإنِّي أحب أن أوضحها باختصار: فأقرر إن خصومتنا لليهود ليست دينية؛ لأن القرآن حضّ على مُصَافَاتِهم ومصادقتهم، والإسلام شريعة إنسانية قبل أن يكون شريعة قومية، وقد أثنى عليهم، وجعل بيننا وبينهم اتفاقًا: ﴿**وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [العنكبوت:٤٦].

وحينما أراد القرآن أن يتناول مسألة اليهود؛ تناولها من الوجهة الاقتصادية والقانونية، فقال تعالى: ﴿**فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ**﴾ [النساء:١٦٠].

وقال الدكتور يوسف القرضاوي: "جهادنا مع اليهود ليس لأنَّهم يهود؛ بعض الإخوة الذين يكتبون فِي هذه القضية، ويتحدثون عنها، يعتبرون أننا نقاتل اليهود؛ لأنَّهم يهود، ولا نرى هذا (!!).

فنحن لا نقاتل اليهود من أجل العقيدة؛ إنَّما نقاتلهم من أجل الأرض، ولا نقاتل الكفار؛ لأنَّهم كفار، وإنَّما نقاتلهم؛ لأنَّهم اغتصبوا أرضنا وديارنا، وأخذوها بغير حق (!!)(٢).

---

(١) (٤٠٩/١)، وانظر -لزامًا-: "حسن البنا مواقف فِي الدعوة والتربية" (ص:٢٨٨).

(٢) "مجلة الراية" عدد (٤٦٩٦) بتاريخ ٢٤ شعبان/١٤١٥هـ، الموافق ٢٥ يناير/١٩٩٥م.

٢- ينبغي اجتماع كلمة المسلمين على قتال أعداء الله.

فكما اجتمعت كلمة أعداء الله على حرب المسلمين، ينبغي أن تجتمع كلمة المسلمين على قتالهم؛ لتكون الغلبة للمسلمين حسب سنن الله الجارية.

قال -تعالى-: ﴿**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [التوبة:٣٦].

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في "تفسير القرآن العظيم" (٢/٣٦٩-٣٧٠):
"أي: كما يجتمعون إذا حاربوكم؛ فاجتمعوا أنتم -أيضًا- إذا حاربتموهم، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون".

٣- فشل كل المحاولات القتالية الفردية أو الحزبية.

إن أعداء الله عندما غزوا أمة الإسلام في عقر دارها، جَيَّشوا الجيوش، واجتمعوا على هدف واحد؛ فأخذوا بعض ما في أيدينا من ديار الإسلام وثروات الأمة الإسلامية، ولن نكون لَهم بالمرصاد إلا إذا اجتمعت كلمة المسلمين على كلمة التوحيد، وكانوا صفًّا كالبنيان يشد بعضه بعضًا، أما محاولات كثير من الحماسيين؛ فلن تزيد الأمة إلا ضغثًا على إبالة.

* * * * *

الفائدة الثالثة
القوى الكافرة وأجهزتها الماكرة ترصد حركة المجتمع المسلم

إن أعداء الله من جند إبليس، وأعوان الشيطان يرصدون نمو أمة الإسلام، وحركة المجتمع المسلم، وقوة الدولة المسلمة.

ولَمْ يزل الكفار ومشركو أهل الكتاب يقومون بذلك منذ فجر الإسلام حيث دولة الإسلام الفَتِيَّة الَّتِي رفع قواعدها، وأرسى أركانَها، وأشاد بنيانها رسول الله محمد ﷺ والذين معه فِي المدينة النبوية، وما حولها من أرض الجزيرة العربية.

وقد جاء هذا صريْحًا فِي حديث المخلفين(١): «... بينما أنا أمشي فِي سوق المدينة إذا نبطي(٢) من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة؛ يقول: من يدل على كعب بن مالك؟

فطفق الناس يشيرون له حَتَّى جاءنِي؛ فدفع إلَيَّ كتابًا من ملك غسان، وكنت كاتبًا؛ فقرأته؛ فإذا فيه: أما بعد؛ فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولَمْ يجعلك الله بدار هوان، ولا مضيعة؛ فَالْحَقْ بنا نواسك».

فتأمل أيها المسلم اللبيب وتدبر أيها الأخ الحبيب كيف يرصد الكفار المحيطون بدولة الإسلام أخبارها، حَتَّى إذا رأوا أن الوهن دبَّ إليها، والمرض نخر جسمها، ووجدوا أن الفرصة سنحت تواثبوا عليها من أقطارها، وكتموا البقية الباقية من أنفاسها.

ومن قرأ تأريخ الحملات الصليبية، وعرف خبايا الحرب الكونية الأولى؛

---

(١) متفق عليه من حديث كعب بن مالك ﷺ.

(٢) هو الفلاح؛ سمي بذلك؛ لأنه يستنبط الماء من الأرض.

حيث جيش بنو الأصفر جيوشهم للقضاء على دولة الخلافة الإسلامية، استبانت له الأمور كالشمس فِي رائعة النهار.

وحَتَّى يتم لَهم ذلك؛ فقد أسسوا "عصبة"، ثُمَّ "هيئة"، و"مجلسًا للفتن"، ثُمَّ "نظامًا عالَميًّا جديدًا".

وهذه الدلالة من دلائل النبوة؛ فقد وقع ما أخبر به رسول الله ﷺ: حذو القذة بالقذة.

وتتجلى فِي الوجوه الآتية:

١- أن أعداء الله يستعملون البعوث الاقتصادية، ويرسلون الأفواج السياحية، ويستخدمون الدراسات الاستشراقية للتجسس على المسلمين، ونقل أخبارهم، ومعرفة أحوالِهم، وتتبع عوراتِهم، ولا يزال الأمر على ذلك حَتَّى يوم الناس هذا (!).

٢- أن دول الكفر مستعدة لاحتضان كل من تسول له نفسه أن يكون حربًا على المسلمين من أبناء جلدتهم؛ فلذلك ترى دول الغرب الصليبِي ترعاهم وتحتضنهم وتأويهم؛ لِيُصَدِّروا فسادهم وإرهابَهم وغلوهم إلَى بلاد المسلمين، ويستبيحوا دماءهم تكفيرًا وتفجيرًا وتدميرًا !!

٣- أن اللجوء إلَى أنظمة الكفر ودُوَله -ولو كان سياسيًّا- فتنة وابتلاء، لا ينجو منها إلا من عصمه الله، وصبر على اللأواء فِي ديار المسلمين؛ ليؤدي شرط الله فِي هذه الأمة نصحًا بالتِي هي أحسن للتِي هي أقوم، وحرصًا على أمنها وأمانِها تحت ظلال الإيْمان بالله ورسوله.

٤- أن معرفة مخططات أعداء الله لا يكون من خلال ما يعلنونه فِي إذاعاتِهم أو يكتبونه فِي صحفهم ومجلاتِهم، أو ما يؤرخونه فِي مذكراتِهم، بل بالفهم الدقيق والفقه العميق لسبيل المجرمين؛ كما فصله الكتاب والسنة.

٥- أن المسلمين لن يستطيعوا رد كيد الكافرين، ودحر مكر المشركين إلا بالصبر والتقوى واليقين.

قال -تعالى-: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

وقال ﷻ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران:١٢٠].

* * * * *

الفائدة الرابعة :
ديار المسلمين منبع خيرات وبركات

لقد شبَّه رسول الله ﷺ بلاد المسلمين "بالقصعة"؛ وهي: وعاء ضخم يؤكل فيه، وَيُثْرَد، وَيُشْبِعُ الفئام من الناس.

وهذا يدل على أن ديار المسلمين منبع للخيرات والبركات:

ففيها أضخم احتياطي لحقول النفط الذي هو روح الصناعة الغربية.

وفيها مناجم المعادن الَّتِي هي المواد الأولية للصناعة الغربيّة.

وموقعها يتوسط قارات العالَم القديْم والجديد.

وتمر بِها طرق التجارة العالمية.

وأرضها أخصب بلاد الدنيا؛ كاليمن السعيد، وبلاد الرافدين، وبلاد الشام المباركة، وفلسطين الَّتِي تدر عسلاً ولبنًا.

ولذلك تواثب عليها أعداء الله كل يريد نصيب الأسد من تركة "الرجل المريض".

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

الفائدة الخامسة :
أمم الكفر نهبت خيرات المسلمين وسرقت ثرواتهم

لقد شبه رسول الله ﷺ "الأمم" بـــ"الأَكَلَة"، وهذا فيه بيان:
أن أمم الكفر أكلت خيرات المسلمين.
وأنَّها سرقت ثرواتِهم بلا مانع ولا منازع.
وأنَّها تناولتها عفوًا صفوًا.
ولا يزال هذا ظاهرًا لذي عينين: تحت شعارات كثيرة، منها:
شركات التنقيب عن النفط والطاقة.
والتخاصية.
ومراقبة البنك الدولي على اقتصاديات جميع بلاد المسلمين؛ فهو الآمر الناهي.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

الفائدة السادسة: أمم الكفر صيَّرت بلاد المسلمين جنودًا مجندة ودويلات متقاطعة متعددة

لقد قَسَّم أعداء الله بلاد المسلمين إِلَى دويلات متقاطعة متدابرة مشغولة بنفسها عن أعدائها؛ كما فِي حديث عبد الله بن حوالة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ستجندون أجنادًا؛ جندًا بالشام، وجندًا بالعراق، وجندًا باليمن.**

فقلت: خِرْ[1] لِي يا رسول الله!. قَالَ: **عليكم بالشام[2]؛ فمن أَبَى؛ فليلحق**

(١) اختر لِي، ودلني على بلاد أسكنها إذا صار الأمر إِلَى ما ذكرت، وحلّ فِي ديار المسلمين ما أخبرت.

قلت: صدق رسول الله! ونصح وَبَرَّ.

(٢) هذا الاختيار النبوي يدل على دور بلاد الشام -حرسها الله- عندما تتفرق الأمة، وتقسم ديارها، وأنَّها مركز الانطلاقة الكبرى للطائفة المنصورة، والفرقة الناجية بإذن الله وحده.

وقد دل على ذلك حديث سلمة بن نفيل الكندي ﷺ قال: كنت جالسًا عند رسول الله ﷺ؛ فقال رجل: يا رسول الله! أذال[أ] الناس الخيل، ووضعوا السلاح، وقالوا: لا جهاد، وقد وضعت الحرب أوزارها[ب]، فأقبل رسول الله ﷺ بوجهه، وقال: «**كذبوا؛ الآن جاء القتال[ت] ولا يزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق، ويزيغ[ث] الله لَهم قلوب أقوام، ويرزقهم منهم حَتَّى تقوم=**

(أ) أهان أو وضعوا أداة الحرب عنها وأرسلوها.

(ب) هذا ظن منهم؛ لأن الإسلام قد انتشر فِي الأرض، وقد يقال ذلك فِي غير زمانِهم؛ لأن الناس ركنوا إِلَى الدنيا، وتركوا الجهاد، ومالوا إِلَى أعدائهم، كما هو حال كثير منهم، حيث عقدوا معاهدات الصلح والاستسلام مع أعداء الله والإسلام (!).

(ت) هذا هو الحق؛ فإن الجهاد ماض إِلَى يوم القيامة.

(ث) يَميل.

بِيَمنه[١]، **وليستق من غدره**[٢]؛ **فإن الله ﷻ تكفل لي بالشام وأهلها»**[٣].

قال ربيعة: فسمعت أبا إدريس الخولانِي يحدث بِهذا الحديث، ويقول: «ومن تكفل الله به؛ فلا ضيعة عليه»[٤].

= **الساعة، وحَتَّى يأتِي وعد الله، والخيل معقود فِي نواصيها الخير إلَى يوم القيامة، وهو يوحي إلَي أنِّي مقبوض غير مُلبّثٍ، وأنتم تتبعونِي أفنادًا يضرب بعضكم رقاب بعض**[*] [ما خشيه رسول الله ﷺ وقع على مدار التأريخ على أشكال مختلفة، وألوان متنوعة، ولكن القاسم المشترك الأعظم بين ذلك كله فتنة الغلو فِي التكفير، والَّتِي لا زالت تحصد رءوسًا من المسلمين فِي مشارق الأرض ومغارِبها قتلاً وتقتيلاً، وتفجيرًا وتدميرًا].، **وعقر دار المؤمنين بالشام»**. "الصحيحة" (١٩٣٥، ١٩٦١).

(١) هذا التنبيه النبوي إشارة إلَى دور بلاد اليمن السعيد، وأنَّها مدد لأهل بلاد الشام.

ويدل على ذلك حديث أبِي امامة ﷺ عن النَّبِي ﷺ قال: **«إن الله استقبل بِي الشام، وولى ظهري اليمن، ثُمَّ قال: يا مُحمَّد! إنِّي قد جعلت لك ما تجاهك غنيمة ورزقًا، وما خلف ظهرك مددًا، ولا يزال الله يزيد -أو قال: يعزز الإسلام وأهله، وينقص الشرك وأهله، حَتَّى يسير الراكب بين كذا -يعنِي: البحرين- لا يخشى إلا جورًا، وليبلغن هذا الأمر مبلغ الليل»**. "صحيح الجامع الصغير" (١٧١٦).

(٢) جمع غديرة؛ وهي: القطعة من الماء يغادرها السيل، والمراد: أن يشرب من مائه.

(٣) وفِي هذا تأكيد أن دعوة الحق القائمة بِها الفرقة الناجية والطائفة المنصورة لن يضرها من خذلها، ولن يضعفها من خالفها، ولن يحقق منها مرادًا وغاية من كذبَها.

ولذلك؛ فكل ما يحدث على ساحتها هو خير لَها وإن كان ظاهره غير ذلك، وبخاصة بعد قبض الثلة الجليلة من علمائها الأبرار، والله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرًا.

(٤) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣٨٨/١، ١١٠/٤، ٣٣/٥ و ٢٨٨)، وأبو داود (٣٨٨/١)، والحاكم=

---

* ما خشيه رسول الله ﷺ وقع على مدار التأريخ على أشكال مختلفة، وألوان متنوعة، ولكن القاسم المشترك الأعظم بين ذلك كله فتنة الغلو فِي التكفير، والَّتِي لا زالت تحصد رءوسًا من المسلمين فِي مشارق الأرض ومغارِبها قتلاً وتقتيلاً، وتفجيرًا وتدميرًا.

أليس هذا واقع ديار المسلمين؛ دويلات ليس لَها من الأمر شيء، وليس لَها فِي توجيه شئونِها الداخلية أو الخارجية أمر أو نَهي، وإنَّما تستمد قوتَها وحمايتها من "الأمم"؟!

وقد قسمت "الأمم" بلاد المسلمين إلَى مناطق نفوذ، ومحميات، ومستعمرات، ومستوطنات فِي معاهدة عقدوها بينهم، وسموها: "معاهدة سايكس بيكو".

وإليك أهم بنودها ملخصة:

أ- منطقة تخضع لحكم إنجليزي مباشر، وتضم ولايتي البصرة وبغداد، ومدينتي حيفا وعكا.

ب- منطقة تؤسس فيها دولة عربية برئاسة زعيم عربِي تحت إشراف الإنجليز، وتضم كركوك وشرقي الأردن والنقب والعقبة، ويكون للإنجليز حَقّ الأولوية فِي المشروعات، وتقديْم المستشارين والموظفين.

ت- منطقة تخضع لحكم فرنسي مباشر، وتضم ساحل سورية من إسكندرونة شمالاً إلَى صور جنوبًا.

ث- منطقة تؤسس فيها دولة عربية برئاسة زعيم عربِي تحت إشراف فرنسي، وتضم مدن الموصل وحلب وحماة ودمشق، ويكون لفرنسا حق الأولوية فِي المشروعات، وتقديْم المستشارين والموظفين.

ج- تنشأ إدارة دولية فِي باقي الأراضي الفلسطينية بالاتفاق مع روسيا وبقية الدول الحلفاء.

ثُمَّ أدخلت بريطانيا وفرنسا بعض التعديلات على بنود الاتفاقية:

أ- تنازل فرنسا عن ولاية الموصل لبريطانيا.

=

(٤/٥١٠) من طرق عنه. وصححه الحاكم، والذهبي، ووافقهم شيخنا أبو عبد الرحمن الألباني -رحِمهم الله-.

ب- موافقة فرنسا على أن تكون فلسطين لبريطانيا.

ت- موافقة بريطانيا على إطلاق يد فرنسا فِي المنطقة الَّتِي ستقام فيها دولة عربية بإشراف فرنسي.

وتبرز من خلال بنود هذه الاتفاقية الصليبية وتعديلاتِها ما يأتِي:

١- التركيز على المشرق الإسلامي، وجعله دويلات صغيرة؛ لا قِوَامَ لَها ولا وزن بين "الأمم".

٢- محاولة استئثار الإنجليز بفلسطين.

ومنه تبرز دلالتان:

الأولى: أن الإنجليز يبيتون لفلسطين ولأهلها شرًّا مستطيرًا، وهو ما جاءت الأيام بكشفه؛ فقد أعلنت فِي الثانِي من تشرين الثانِي عام (١٩١٧م) على لسان وزير خارجيتها (آرثر بيلفور) وعدًا لليهود تضمن منحهم إقامة دولة لَهم فِي فلسطين.

الأخيرة: أن الصليبيين واليهود يدركون أهمية بلاد الشام، وبِخاصة قلبها -الديار المقدسة-.

٣- وعود الحلفاء مآلها إلَى الغدر والخُلْفِ والتآمر.

وعدتَ فكانَ الْخُلْفُ منك سجيةً مواعيـــد عرقـــوبٍ أخاهُ بيترب

وإن تعجب؛ فمن إدراك كثير من المسلمين لِهذه الحقائق، وأن الحدود السياسية مصطنعة بين ديارهم، ومع ذلك؛ فهم ينتسبون إليها، ويحرصون عليها، ويقيمون عليها أسوار الأسلاك الشائكة، ويزرعونَها بحقول ألغام الأفراد، ويقدسونَها أشد من "الأمم" (!!).

*****

الفائدة السابعة:
عناصر قوة المسلمين ليس في عَددهم وعُددهم

لقد بَيَّنَ رسول الله ﷺ: أن العناصر المادية والقوى البشرية موجودة فِي الأمة الإسلامية فِي حالة الوهن، ومع ذلك؛ فلم تنتفع بِها أمة الإسلام؛ لأن عناصر قوة الأمة الإسلامية ليس فِي عَدَدِهَا وَعُدَدِهَا، وخيلها وَخُيَلائِهَا، وَرَجْلِهَا وَرجَالِهَا، بل فِي عقيدتِها ومنهجها؛ لأَنَّها أمة العقيدة، وحاملة لواء التوحيد والسنة والمنهج.

أَلَم تسمع قول رسول الله ﷺ يجيب السائل عن العدد كما فِي حديث ثوبان: «بَلْ أَنْتُم يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ».

فالعدد كثير؛ والجمع غفير؛ ولكنه لَمْ يَرُدَّ من الوهن شيئًا مذكورًا.

وتأمل درس حنين تجده ماثلاً فِي كل عصر: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:٢٥-٢٦].

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فِي "تفسير القرآن العظيم" (٢/٣٥٦-٣٥٧):

"هذه أول آية نزلت من براءة؛ يَذْكُر الله -تعالى- للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم فِي نصره إياهم فِي مواطن كثيرة من غزواتِهم مع رسول الله ﷺ، وأن ذلك من عنده -تعالى-، وبتأييده وتقديره، لا بعَدَدِهم، ولا بعُدَدِهم، ونبههم على أن النصر من عنده سواء قَلَّ الجَمْعُ أَوْ كثر؛ فإنَّهم يوم حنين أعجبتهم كثرتُهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئًا؛ فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع

رسول الله ﷺ.

ثُمَّ أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين؛ فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله".

وقال الإمام ابن قيم الجوزية -رحمه الله- في "زاد المعاد" (٣/٤٧٧-٤٧٨): "واقتضت حكمته -سبحانه- أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة، مع كثرة عَددهم وعُددهم، وقوة شوكتهم؛ ليطامن رءوسًا رفعت بالفتح، ولَمْ تدخل بلده وحرمه كما دخله رسول الله ﷺ، واضعًا رأسه منحنيًا على فرسه، حَتَّى إن ذقنه تكاد تمس سرجه تواضعًا لربه، وخضوعًا لعظمته، واستكانة لعزته، أن أحل له حرمه وبلده، ولَمْ يحل لأحد قبله ولا لأحد بعده، وليبين -سبحانه- لمن قال: "لن نغلب اليوم من قلة" أن النصر إنَّما هو من عنده، وأنه من ينصره؛ فلا غالب له، ومن يخذله؛ فلا ناصر له غيره، وأنه -سبحانه- هو الذي تولى نصر رسوله ودينه، لا كثرتكم الَّتي أعجبتكم؛ فإنَّها لَمْ تغن عنكم شيئًا؛ فوليتم مدبرين، فلما انكسرت قلوبُهم أُرْسِلت إليها خِلَعُ الجبر مع بريد النصر؛ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنودًا لَمْ تروها.

وقد اقتضت حكمته أنَّ خِلَعَ النصر وجوائزه إنَّما تفيض على أهل الانكسار: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ**﴾ [القصص:٥-٦]". اهـ.

ومن المواطن الَّتي نصر الله عبده ورسوله ﷺ، وأعز جنده، وذكرها في كتابه المجيد يوم بدر؛ فقال ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم**

بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران:١٢٣-١٢٨].

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في "تفسير القرآن العظيم" (٤٠٩/١): "يوم بدر، وكان يوم جُمعة، وافق السابع عشر من رمضان سنة اثنتين من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودمغ فيه الشرك وخرب محله وحزبه، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ؛ فإنَّهم كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فيهم فارسان، وسبعون بعيرًا، والباقون مشاة، ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه.

وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلَى الألف في سوابغ الحديد، والبيض، والعدة الكاملة، والخيول المسومة، والحلي الزائد؛ فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنْزيله، وبيض وجه النَّبي وقبيله، وأخزى الشيطان وجيله، ولهذا قال -تعالى- ممتنًّا على عباده المؤمنين وحزبه المتقين: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ [التوبة: ٢٥]. أي: قليل عددكم؛ لتعلموا أن النصر إنَّما هو من عند الله، لا بكثرة العَدَد والعُدَد، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:٢٥-٢٦].

ولقد جعل الله ذلك سنة جارية لن تَجد لَها تبديلاً ولا تحويلاً: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم

مُّلاَقُوا اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في "تفسير القرآن العظيم" (١/٣١٠): "... استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم؛ لكثرتهم؛ فشجعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق؛ فإن النصر من عند الله، ليس عن كثرة عَدَدٍ ولا عُدَد".

وأيضًا ذكر رسول الله ﷺ العُدَدَ والمَدَدَ الماديين؛ فوَصْفه ﷺ لبلاد المسلمين بالقصعة دليل على أن المسلمين يملكون يومئذ خيرًا ماديًّا كثيرًا أطمع عدوهم بهم، ومع ذلك؛ فلم ينفعهم شيئًا.

وتتجلى دلالات من هذه الفائدة في الوجوه الآتية:

١- أن النصر والتمكين لهذه الأمة هو ثَمرة إيْمانها بالله وإقامة شرعه.

فإذا مكّنوا لدين الله في حياتهم مكّن الله لهم دينهم في أرضهم: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** [النور:٥٥].

٢- النصر له أسباب:

كما في قوله -تعالى-: **﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾** [التوبة:٤٦].

وهي أسباب:

١- **مادية**؛ كما في قوله -تعالى-: **﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾** [الأنفال:٦٠].

٢- **معنوية**؛ كما في قوله: **﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾** [محمد:٧]. وقوله: **﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾** [الحج:٤٠]. وقوله:

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد:٢٥].

٣- واجب الوقت الرجوع إِلَى الدين الذي كان عليه مُحمَّدﷺ وأصحابه.

قال شيخ الإسلام بن تيمية -رحمه الله-: "... لكن لغلبة الجهل، وقلة العلم بآثار الرسالة فِي كثير من المتأخرين لَمْ يكن تكفيرهم بذلك حَتَّى يتبين لَهم ما جاء به الرسول ﷺ مِمَّا يخالفه، ولِهذا ما بينت هذه المسألة -قط- لمن يعرف أصل الدين إلا تفطن، وقال هذا أصل دين الإسلام، وكان بعض الأكابر من الشيوخ العارفين من أصحابنا يقول: هذا أعظم ما بينته لنا لعلمه بأن هذا أصل الدين.

وكان هذا وأمثاله فِي ناحية أخرى يدعون الأموات ويسألونَهم، ويستجيرون بِهم، ويتضرعون إليهم، وربَّما كان ما يفعلونه بالأموات أعظم! لأَنَّهم إِنَّما يقصدون الميت فِي ضرورة نزلت بِهم؛ فيدعونه دعاء المضطر، راجين قضاء حاجاتِهم بدعائه أو الدعاء به، أو الدعاء عند قبره، بخلاف عبادتِهم لله -تعالى- دعائهم إياه؛ فإِنَّهم يفعلونه فِي كثير من الأوقات على وجه العادة والتكلف، حَتَّى إن العدو الخارج عن شريعة الإسلام لما قدم دمشق خرجوا يستغيثون بالموتى عند القبور الَّتِي يرجون عندها كشف ضرهم.

وقال بعض الشعراء:

يا خائفين مــن التتر　　　لوذوا بقبــر أبِي عمر

أو قال:

عوذوا بقبر أبِي عمر　　　ينجيكم من الضــرر

فقلت لَهم: هؤلاء الذين تستغيثون بِهم لو كانوا معكم فِي القتال؛ لانْهزموا؛ كما انْهزم مَن انْهزم مِن المسلمين يوم أحد؛ فإنه كان قد قضى أن العسكر ينكسر لأسباب اقتضت ذلك، ولحكمة كانت لله ﷻ فِي ذلك، ولِهذا كان أهل المعرفة بالدين والمكاشفة لَمْ يقاتلوا فِي تلك المرة لعدم القتال الشرعي؛ الذي أمر

الله به ورسوله، ولما يحصل فِي ذلك من الشر والفساد، وانتفاء النصرة المطلوبة فِي القتال، فلا يكون فيه ثواب الدنيا ولا ثواب الآخرة؛ لمن عرف هذا وهذا، وإن كان كثير من المقاتلين الذين اعتقدوا هذا قتالاً شرعيًّا أجروا على نياتهم.

فلما كان بعد ذلك جعلنا نأمر الناس بإخلاص الدين لله ﷻ والاستغاثة به، وأنَّهم لا يستغيثون إلا إياه، لا يستغيثون بِملك مقرب، ولا نبِي مرسل؛ كما قال -تعالى- يوم بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٩].

وروي أن رسول الله ﷺ كان يوم بدر يقول: «**يا حي يا قيوم، لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث**»[١]. وفِي لفظ: «**أصلح لِي شأنِي كله، ولا تكلنِي إلَى نفسي طرفة عين، ولا إلَى أحد من خلقك**».

فلما أصلح الناس أمورهم، وصدقوا فِي الاستغاثة بربِّهم نصرهم على عدوهم نصرًا عزيزًا؛ لَمْ يتقدم نظيره، ولَمْ تُهزم التتار مثل هذه الهزيمة قبل ذلك أصلاً؛ لما صح من تحقيق توحيده وطاعة رسوله ما لَمْ يكن قبل ذلك، فإن الله ينصر رسوله والذين آمنوا فِي الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد[٢].

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: "عجالة الراغب المتمني" (٤٩ و٣٣٨) وذكر يوم بدر وهم من الإمام ابن تيمية -رحِمه الله-.

(٢) "الاستغاثة فِي الرد على البكري" (ص:٦٣٠-٦٣٣).

الفائدة الثامنة
الأمة الإسلامية لم يعد لها وزن بين أمم الأرض

لقد أخبر الرسول ﷺ بذلك؛ فقال: «وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ»[1].

---

(١) وقع من بعض طلاب العلم -سدده الله- وصفًا للصحابة ﷺ بـ"الغثائية"، وقد طال الجدل بينه وبين منتقديه حول هذه الكلمة وغيرها، وفرخت فتنًا عمياء -نعوذ بالله من ذلك- والذي ندين الله به:

١- أن هذا الوصف قبيح فِي حق أصحاب رسول الله ﷺ الذين هم جيل القدوة وقرن الأسوة ﷺ.

٢- أن أصحاب رسول الله ﷺ ليس فيهم غثاء، وإنَّما يأتي الغثاء، وتصير الأمة إلَى "الغثائية" عندما تتنكب منهج أصحاب رسول الله ﷺ؛ كما هو واقعنا المعاصر؛ إلا تلك الفرقة الناجية والطائفة المنصورة الَّتِي حافظت على منهج صحابة رسول الله ﷺ.

٣- يكفي فِي رد هذا اللفظ الشنيع فِي حق الصحابة الكرام ﷺ ما أخرجه الإمام مسلم (١٨٣٠) عن أبِي سعيد الحسن البصري: أن عائذ بن عمرو ﷺ دخل على عبيد الله بن زياد؛ فقال: أي بني! إنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن شر الرعاء الحطمة**»؛ فإياك أن تكون منهم، فقال له: **اجلس؛ فإنَّما أنت من نُخالة أصحاب مُحمَّد ﷺ**، فقال: **وهل كانت لَهم نُخالة، إنَّما كانت النخالة بعدهم وفِي غيرهم!**

... نعم؛ النخالة والغثائية من بعدهم وفِي غيرهم، أما الصحابة ﷺ فكلهم خيرة بررة عدول لا يذكرون إلا بالجميل، ولا تضرب بِهم الأمثلة فِي الخطأ والزلل للتمثيل، ولا يُتعرض للخلاف الذي وقع بينهم، وإنَّما يُلتمس لَهم العذر؛ فكلهم مجتهد مأجور.

٤- ولذلك ينبغي على كل من وقع منه ذلك، أو ما يقاربه، أو ما يشابِهه: أن يتوب إلَى الله منه، والله بصير بالعباد.

وقد حاول بعضهم (!) أن يستنبط من كلامي هنا حول حديث: «**تداعي الأمم**». أنه يَمس جناب الصحابة الكرام ... ولكن أين الثرى من الثريا ... فإن كلامي واضح جلي فِي =

=

المسلمين الذين وصفهم رسول الله ﷺ على كثرتهم بالغثاء، وهم بمنطوق الحديث ومفهومه بعد الصحابة ﭫ؛ حيث يقول رسول الله ﷺ: «**لا؛ أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل**». فهذا وصف من رسول الله ﷺ وليس وصفًا منِّي، وقولاً خرج من فمي، فهو ليس اجتهادًا لي... ولو لَم يثبت عنه ﷺ لما قلته، أو أعدته، أو ذكرته أو خطر ببالي .. (!).

فإن أصر هذا المتقول على إفكه وبُهتانه، ومضى في افترائه وهذيانه؛ فلن يجدني قائلاً له ولأمثاله؛ إلا ما واجه به عدد من الصحابة الكرام ﭫ بعض من بَهتوهم، وافتروا عليهم، وأساءوا إليهم؛ فها هو سعد بن أبي وقاص ﭬ -كما في "الصحيحين"- يدعو على من غمز بعدالته وسلوكه، وطعن في قسمته بدعاء عظيم عظيم -عليه- مع أنه ﭬ لَم يتهم بعقيدة باطلة؛ أنه -مثلاً- مرجئ، أو ينسب إلى منهج فاسد: أنه -مثلاً- مميع، أو يطعن في دينه: أنه -مثلاً- يسب الصحابة الأجلة ﭫ وهو من ذلك بريء بريء.

فكيف -بالله- ولو كان؟!

فإنِّي أنصح لِهؤلاء المتقولين ولأولئك المتهوكين: أن يتوبوا إلى الله ويئوبوا إليه قبل أن أدعو عليهم بدعاء هذا الصحابي الجليل على المفترى عليه بسيئ الأقاويل، وهو قوله ﭬ:

«اللهم إن كان عبدك هذا كاذبًا:

فأطل عمره ..

وأطل فقره ..

وعرضه للفتن».

ومثله ما رواه مسلم -وأصله في "الصحيحين"- عن سعيد بن زيد ﭬ لما ادعت عليه امرأة -أنه أخذ شيئًا من أرضها- فقال:

«اللهم إن كانت كاذبة:

فَعَمِّ بصرها ..

واقتلها في أرضها».

فهل سيصرون ويستكبرون ولشياطينهم يتبعون؟!

أم أنَّهم سيقبلون ويرجعون ويتراجعون؟!

هذا ما نرجوه (لهؤلاء)، ونتمناه (لأولئك)؛ فالمؤمنون عذارون، والمنافقون عثارون!

=

وهذه الدلالة تلقي بظلالها الآتية:

أ- أن الغثاء الذي يحمله السيل العرم يسير معه محمولاً مع تياره، وهكذا أمة الإسلام -إلا من رحم الله- تجري مع تيار أمم الكفر، حتَّى لو نعق بـــ"هيئة اللّمم" غراب، أو طَنَّ فِي "مجلس الفتن" ذباب، لخروا على ذلك صمًّا وعميانًا، وجعلوه كتابًا محكمًا وتبيانًا، وسموه: "**الشرعية الدولية**".

ب- أن السيل يحمل زبدًا رابيًا لا ينفع النَاس، وكذلك أمة الإسلام -إلا من رحم الله- لَمْ تعد تؤدي دورها الذي به تبوأت قيادة "الأمم"، وهو: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

ت- أن الزبد سيذهب جفاء، ولذلك سيبدِّلُ الله من تولَّى، ويُمَكِّن للطائفة المنصورة والفرقة الناجية، والفئة المرحومة؛ الَّتِي تنفع الناس فِي الأرض، كما تواتر فِي أحاديث الطائفة المنصورة.

ث- أن الغثاء الذي يحمله السيل خليط من قاذورات الأرض، وفتات الأشياء، وكذلك أفكار كثير من المسلمين تقميش من زبالة الفلسفات، وحثالة الحضارات، وقلامة المدنيات.

=

وبعد هذا كله لا ندعي الكمال في القول والعمل، أو عدم الخطأ والزلل؛ فكل ابن آدم خطاء ... فإن وقعت في شيء من ذلك سهوًا أو خطأً، فأنا أبرأ إلى الله منه في خلوتِي وجلوتِي، وفي سري وعلني، وفِي حياتِي ومماتِي.

وأسأل ربي -جل في علاه، وعظم فِي عالي سماه-: أن يُحسن خاتِمتِي ويتوفنِي -وهو راضٍ عنِّي- على الكتاب والسنة بفهم الصحابة الكرام ، ومنهج السلف الأعلام ... إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وأرجو مِمن وقع على شيء من ذلك في كتبِي، أو محاضراتِي، أو دروسي، أن يهدي إلي ذلك بتفصيل، فإنِّي متقلد منته ما حييت.

إلى الديان يوم الدين نَمضي   وعند الله تَجتمع الخصوم

ج- أن الغثاء الذي يحمله السيل لا يدري مصيره الذي يجري إليه باختياره؛ فهو كمن حفر قبره بظفره، وكذلك أمة الإسلام لا تدري ما يُخَطِط لَها أعداؤها، ومع ذلك؛ فهي تَتْبَعُ كُلَّ ناعقٍ، وتميل مع كل ريح إلا من رحم الله، وقليلٌ ما هم، والله المستعان.

* * * * *

الفائدة التاسعة
أمم الكفر لم تعد تهاب المسلمين

لقد فقد المسلمون مهابتهم بين الأمم، والَّتي كانت ترجف أوصال "الأمم" الكافرة، وترتعد منها فرائص "حزب الشيطان".

قال -تعالى-: ﴿**لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ**﴾ [الحشر:١٣].

لأن سلاح الرعب الفتاك لَمْ يعد يملأ قلوب الكافرين، ويزلزل حصون المشركين.

قال الله -تعالى-: ﴿**سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا**﴾ [آل عمران:١٥١].

وقال -سبحانه-: ﴿**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ**﴾ [الأنفال:١٢].

وقال -جل ذكره-: ﴿**وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا**﴾ [الأحزاب:٢٦].

وقال -عز ثناؤه-: ﴿**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ**﴾ [الحشر:٢].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أعطيتُ خمْسًا لَمْ**

يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِن الأَنبياءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأحِلَّتْ لِي الغَنَائِمُ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إلَى قَومِه خاصَّةً، وَبُعِثْتُ إلَى النَّاسِ عَامَّةً»[1].

وهذه الخصوصية تتعدى إلَى الأمة الإسلامية؛ بدليل قوله ﷺ: **«وَلَيَنْزِعَنَّ الله مِنْ صُدُور عَدُوِّكُمْ المَهَابَةَ مِنْكُمْ»**.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري (١/٤٣٦- فتح)، ومسلم (٥٢١).

الفائدة العاشرة
حب الدنيا وأثره السيئ على الأمة الإسلامية

لقد بَيَّنَ رسول الله ﷺ: أن الوهن هو: «حبُّ الدنيا». لأنه رأس كل خطيئة، ومنه تتولد الذنوب والمعاصي، وهي تضر بالأفراد والأمم والشعوب ولابُدَّ، وضررها كضرر السموم، وعواقبها خطيرة، فما فِي الدنيا والآخرة شر داءٍ وبلاءٍ إلا وسببه الذنوب والمعاصي.

ولا تزال تَهدم فِي بناء الأمة الحاضرة حَتَّى تتحقق فيها سُنَّةُ الله الجارية.

قال الله -عز وعلا-: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء:١٧].

وقال -تعالى-: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

فترى الأمم السالفة من عهد نوح إلَى هذا الزمان كلما عصت أمةٌ أجَّلها الله -تعالى- مدة من الزمان؛ لعلهم يتوبون، ولعلهم يرجعون، ومع عصيانِهم قد يُدرُّ الله عليهم النعم، ولكنه استدراج.

قال -تعالى-: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:٤٤].

وقال -جل جلاله-: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤].

فبين -تعالى- أن الناس إذا تركوا ما أمرتهم به رسله، فلم يأتمروا بأوامره، ولَمْ ينتهوا عن نواهيه؛ فإنه -تعالى- قد يفتح عليهم، ويغدق الخيرات والبركات: من سعة فِي الأرزاق، وصحة فِي الأجسام، ووفر فِي الأموال، وغيرها، حَتَّى إذا

فرحوا بِها واطمأنوا أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وهم فِي غرّة، فإذا هم آيسون.

ذكر ابن جرير -رحِمه الله تعالى- فِي "جامع البيان" (٥/١٩٣-١٩٤) عن هذه الآية؛ فقال:

"**فإذا قال قائل**: وكيف قيل: ﴿**فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ**﴾. وقد علمت أن باب الرحْمة، وباب التوبة لَمْ يفتح لَهم، وأبواب أخر غيره كثيرة؟

قيل: إن معنى ذلك على غير الوجه الذي ظننت من معناه، وإنَّما معنى ذلك: فتحنا عليهم استدراجًا مِنَّا لَهم أبواب كل ما كنا سددنا عليهم بابه عند أخذنا إياهم بالبأساء والضراء؛ ليتضرعوا إذ لَمْ يتضرعوا، وتركوا أمر الله؛ ولأن آخر هذا الكلام مردود على أوله".

وقال ابن كثير -رحِمه الله- فِي "تفسير القرآن العظيم" (٢/١٣٢) فِي قوله: ﴿**فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ**﴾:

"فتحنا عليهم أبواب الأرزاق من كل ما يختارون، وهذا استدراج منه -تعالى-، وإملاء لَهم -عياذًا بالله- من مكره؛ ولِهذا قال: ﴿**حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا**﴾؛ أي: من الأموال والأولاد والأرزاق .. أخذهم على غفلة وغرة منهم؛ فإذا هم آيسون من كل خير".

وهكذا، إنَّما سبب إهلاك الأمم هو: عصيانُهم لأنبيائهم، وبُعدهم عن دين ربِّهم، ففتحت عليهم الدنيا بزخارفها، ومُتَعِهَا، وشهواتِها: من مال، وبنين، ونساء، وخدم، وغير ذلك.

"**والأمثلة على ذلك كثيرة؛ منها:**

إغراق قوم نوح؛ فما الذي جعل الماء يعلو الجبال الراسية إلا المعاصي والشرك، فلم يبق على وجه الأرض ديَّار إلا ما كان فِي السفينة؟.

قال الله -تعالى- عن دعوة نوح: ﴿**وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ**

دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٦-٢٧].

وإهلاك قوم عاد بالريح العقيم؛ فما الذي أرسلها عليهم حَتَّى أصبحوا وكأنَّهم أعجاز نخل خاوية؛ فأصبحوا عبرة للمعتبرين؟

قال الله -تعالى-: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦-٧].

وإهلاك ثمود بالصيحة: ما الذي أهلك قوم صالح بالعذاب الأليم؛ فماتوا عن بكرة أبيهم؟

قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر:٣١].

وقال الله -تعالى-: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [هود:٦٧-٦٨].

وإهلاك قوم لوط بجعل عاليها سافلها: فما الذي تسبب فِي رفع قرى سدوم إِلَى أعلى الفضاء حَتَّى سُمِعَتْ أصوَاتُهُم فِي السماء، ثُمَّ جعل أعلاها أسفلها مع رجمهم بحجارة من سجيل؟

قال -تعالى-: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٢-٨٣].

وإغراق فرعون وقومه: فما الذي أغرقهم فِي أعماق البحر؛ فالأجساد غرقى، والأرواح حرقى، النار يعرضون عليها صباحًا ومساءً، ويوم القيامة يدخلون أشد العذاب؟

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنصَرُونَ﴾ [القصص:٤٠-٤١].

وهكذا باقي الأمم السابقة؛ كقوم شعيب، وقارون، وقوم تُبَّع، وقوم صاحب ياسين، وغيرهم.

قال -جل وعلا-: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]"[(١)].

وقد بَيَّنَ العلامة ابن قيِّم الجوزية -رحمه الله- خطورة المعاصي وأثرها على الشعوب والأمم في كتابه العجاب: "الداء والدواء" وقد اخترت منها ما يتعلق بأسباب الذُّل والصَّغار والوهن.

قال -رحمه الله-:

"**ومن عقوباتها**: أنَّها تجعل صاحبها من السفلة بعد أن كان مهيئًا لأن يكون من العلية؛ فإن الله خلق خلقه قسمين: عليةً، وسفلةً، وجعل عليين مستقر العلية، وأسفل سافلين مستقر السفلة، وجعل أهل طاعته الأعلين في الدنيا والآخرة، وأهل معصيته الأسفلين في الدنيا والآخرة، كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عليه، وأهل معصيته أهون خلقه عليه، وجعل العزة لهؤلاء، والذلة والصغار لهؤلاء؛ كما في "مسند الإمام أحمد" من حديث عبد الله بن عمرو عن النَّبي ﷺ؛ أنه قال: «**بعثت بالسيف بينَ يَدَيْ الساعة، حَتَّى يُعْبَدَ الله وحدَه، وَجُعِلَ رزْقِي تَحْت ظِلِّ رُمْحِي، وجُعِلَ الذُّلُّ والصَّغارُ على من خَالفَ أَمْرِي**»[(٢)].

---

(١) "المعاصي وأثرها على الفرد والمجتمع" حامد المصلح (ص١٣٧-١٣٩)..

(٢) **صحيح لغيره**: أخرجه أحمد (٥١١٤، ٥١١٥، ٥٦٦٧)، والخطيب البغدادي في "الفقيه والمتفقه" (٧٣/٢)، وابن عساكر (١/٩٦/١٩)، وابن الأعرابي في "المعجم" (١١٣٧)، والطحاوي في "مشكل الآثار" (٢٣١)، وابن أبي شيبة (٣١٣/٥)، وعبد بن حميد (٨٤٦)، وغيرهم من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ مرفوعًا.

=

فكلما عمل العبد معصيةً نزل إلَى أسفل درجة، ولا يزال فِي نزول حَتَّى يكون من الأسفلين، وكلما عمل طاعةً ارتفع درجةً، ولا يزال فِي ارتفاع حَتَّى يكون من الأعلين.

وقد يجتمع للعبد فِي أيام حياته الصعود من وجهٍ والنُّزول من وجهٍ، وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله، فليس من صعد مائة درجةٍ ونزل درجة واحدةً، كمن كان بالعكس.

ولكن يعرض هاهنا للنفوس غلط عظيم، وهو: أن العبد قد ينْزل نزولاً بعيدًا أبعد مِمَّا بين المشرق والمغرب، ومِمَّا بين السماء والأرض؛ فلا يفي صعوده ألف درجة بِهذا النُّزول الواحد؛ كما فِي "الصحيح" عن النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: **«إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ لا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَد مِمَّا بين المشْرِقِ والمَغْرِب»**[(١)].

فأي صعود يوازي هذه النَّزلة؟ والنُّزول أمر لازم للإنسان، ولكن من الناس من يكون نزوله إلَى غفلة، فهذا متى استيقظ من غفلته عاد إلَى درجته، أو إلَى أرفع منها بحسب يقظته.

ومن عقوباتِها: أنَّها تُجرئ على العبد من لَمْ يكن يتجرأ عليه من أصناف المخلوقات، فتجترئ عليه الشياطين بالأذى والإغواء والوسوسة والتخويف والتحزين، وإنسائه ما به مصلحته فِي ذكره ومضرته فِي نسيانه؛ فتجترئ عليه الشياطين حَتَّى تؤزه إلَى معصية الله أزًّا.

=

وله شاهد مرسل: أخرجه القضاعي فِي "مسند الشهاب" (٣٩٠)، وابن أبِي شيبة (٣٢٢/٥).
وبالجملة: فالحديث ثابت؛ فقد جود إسناده شيخ الإسلام فِي "اقتضاء الصراط المستقيم" (ص٣٩) وصححه الحافظ العراقي فِي "المغني عن حمل الأسفار" (٣٤٢/١)، وحسنه الحافظ فِي "فتح الباري" (٢٢٢/١٠)، وثبته (٢٧٤/١٠).

(١) رواه البخاري (٦١١٢)، ومسلم (٢٩٨٨).

وتجترئ عليه شياطين الإنس بِما تقدر عليه من أذاه فِي غيبته وحضوره، ويجترئ أهله، وخدمه، وأولاده، وجيرانه حَتَّى الحيوان البهيم.

قال بعض السلف: إنِّي لأعصي الله؛ فأعرف ذلك فِي خُلُق امرأتِي ودابتِي.

وكذلك يجترئ أولياء الأمر بالعقوبة الَّتِي إن عدلوا فيها أقاموا عليه حدود الله، وكذلك تجترئ عليه نفسه؛ فتتأسد عليه، وتستصعب عليه، فلو أرادها لخير لَمْ تطاوعه ولَمْ تنقد له، وتسوقه إلَى ما فيه هلاكه؛ شاء أم أبَى.

ومن عقوباتِها: أنَّها تباعد عن العبد وليَّه، وأنفع الخلق له، وأنصحهم له، ومَنْ سعادته فِي قربه منه، وهو المَلَكُ الموكَّلُ به، وتدني منه عدوه، وأَغَشُّ الخلق له، وأعظمهم ضررًا له، وهو الشيطان؛ فإن العبد إذا عصى الله تباعد منه المَلَكُ بقدر تلك المعصية؛ حَتَّى إنه ليتباعد عنه بالكذبة الواحدة مسافةً بعيدةً.

اختصم بين يدي النَّبِيِّ ﷺ رجلان؛ فجعل أحدهما يسبّ الآخر، وهو ساكت، فتكلم بكلمة يرد بِها على صاحبه، فقام النَّبِيُّ ﷺ؛ فقال: يا رسول الله! لما رددت عليه بعض قوله قمت؟!

فقال: «**كان الْمَلَكُ يُنافِحُ عَنْكَ، فَلَمَّا رَدَدْتَ عَلَيْه جاءَ الشَّيطانُ؛ فَلَمْ أكُنْ لأَجْلِسَ مَعَ الشَّيْطَانِ**»(١).

وإذا دعا العبد المسلم لأخيه بظهر الغيب أمَّن المَلَكُ على دعائه، وقال: «**لك بِمثله**»(٢).

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود (٤/٢٧٤/٤٨٩٧)، وأحمد (٢/٤٣٦)، والبغوي فِي "شرح السنة" (١٣/١٦٣/٣٥٨٦) من طريق يحيى القطان وسفيان بن عيينة كلاهما عن ابن عجلان عن المقبري عن أبِي هريرة ﷺ به.

قلت: وهذا سند حسن.

(٢) كما رواه مسلم (٢٧٣٢) عن أبِي الدرداء ﷺ.

وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أمَّنت الملائكة على دعائه[(١)].

وإذا أذنب العبد المؤمن الموحد المتبع لسبيله وسنة رسوله ﷺ استغفر له حملة العرش ومن حوله[(٢)].

فَمَلَكُ المؤمن يرد عنه، ويحارب، ويدافع عنه، ويعلمه، ويثبته، ويشجعه؛ فلا يليق به أن يسيء جواره، ويبالغ فِي أذاه، وطرده عنه، وإبعاده.

ومن عقوباتِها: أنَّها تستجلب مواد هلاك العبد فِي دنياه وآخرته؛ فإن الذنوب هي أمراض متَى استحكمت قتلت ولابدَّ، وكما أن البدن لا يكون صحيحًا إلا بغذاء يحفظ قوته، واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة والأخلاط الردية الَّتِي متى غلبت عليه أفسدته، وحمية يمتنع بِها من تناول ما يؤذيه ويخشى ضرره، فكذلك القلب لا تتم حياته إلا بغذاء من الإيْمان والأعمال الصالحة تحفظ قوته، واستفراغ بالتوبة النصوح يستفرغ بِها المواد الفاسدة والأخلاط الرديئة منه، وحمية توجب له حفظ الصحة وتجنب ما يضادها، وهي عبارة عن ترك استعمال ما يضاد الصحة" اهـ.

وبالجملة؛ فحبّ الدنيا يفسد الدين؛ كما يفسد الخلُّ العسلَ، وكما يبطلُ الرِّياءُ العملَ.

وقال ابن قيم الجوزية -رحِمه الله- فِي كتابه "عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين" (ص٣٥٠-٣٨٥):

"**قالوا**: وإنَّما كان حبّ الدنيا رأس الخطايا، ومفسد للدين من وجوه:

أحدهما: أن حبها يقتضي تعظيمها، وهي حقيرة عند الله، ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقر الله.

وثانيها: أن الله لعنها ومقتها وأبغضها إلاَّ ما كان له فيها، ومن أحب ما

(١) كما فِي "صحيح البخاري" (٧٨٠)، و"صحيح مسلم" (٤١٠).

(٢) انظر: "الحبائك فِي أخبار الملائك" (ص٤٩ و١٥٤) للسيوطي.

لعنه الله ومقته وأبغضه؛ فقد تعرض للفتنة، ومقته، وغضبه.

وثالثهما: أنه إذا أحبَّها صيَّرها غايته، وتوسل إليها بالأعمال الَّتِي جعلها الله وسائل إليه وإلَى الدار الآخرة؛ فعكس الأمر، وقلب الحكمة؛ فانتكس قلبه، وانعكس سيره إلى وراء.

فهاهنا أمران:

أحدهما: جعل الوسيلة غايةً.

والثانِي: التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا.

وهذا شر معكوس من كل وجه؛ وقلب منكوس غاية الانتكاس، وهذا هو الذي انطبق عليه حذو القذة بالقذة قوله -تعالى-: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [هود:١٥-١٦].

وقوله -تعالى-: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا**﴾ [الإسراء:١٨].

وقوله -تعالى-: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ**﴾ [الشورى:٢٠].

فهذه ثلاث آيات يشبه بعضها بعضًا، وتدل على معنى واحد؛ وهو: أن من أراد بعمله الدنيا وزينتها دون الله والدار الآخرة؛ فحصته ما أراد وهو: نصيبه ليس له نصيب غيره، والأحاديث عن رسول الله ﷺ مطابقة لذلك مفسرة له؛ كحديث أبِي هريرة ﷺ فِي الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار: الغازي، والمتصدق، والقارئ، الذين أرادوا بذلك الدنيا والنصيب. وهو فِي "صحيح مسلم"[1].

---

(١) جزء من حديث أبِي هريرة ﷺ فِي الثلاثة الذين تسعر بِهم جهنم -عياذًا بالله-: أخرجه مسلم (١٩٠٥) بطوله.

ورابعها: أن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه فِي الآخرة؛ لاشتغاله عنه بِمحبوبه.

والناس هاهنا مراتب:

فمنهم: من يشغله محبوبه عن الإيْمان وشرائعه.

ومنهم: من يشغله عن الواجبات الَّتِي تجب عليه لله؛ ولخلقه؛ فلا يقوم بِها ظاهرًا ولا باطنًا.

ومنهم: من يشغله حبّها عن كثير من الواجبات.

ومنهم: من يشغله عن واجب يعارض تحصيلها، وإن قام بغيره.

ومنهم: من يشغله عن القيام بالواجب فِي الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي؛ فيفرط فِي وقته، وفِي حقوقه.

ومنهم: من يشغله عن عبودية قلبه فِي الواجب، وتفريغه لله عند أدائه؛ فيؤديه ظاهرًا لا باطنًا.

وأين هذا من عشاق الدنيا ومحبيها؟ هذا من أندرهم.

وأقل درجات حبها: أن يشغل عن سعادة العبد، وهو تفريغ القلب لحبّ الله، ولسانه لذكره، وجمع قلبه على لسانه، وجمع لسانه وقلبه على ربه؛ فعشقها ومحبتها تضر بالآخرة؛ كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا.

وخامسها: أن محبتها تجعلها أكبر همِّ العبد؛ ففي حديث أنس بن مالك ﷺ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ كَانَت الآخِرَةُ أَكْبَرَ هَمِّه؛ جَعَلَ الله غِنَاهُ فِي قَلْبه، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِي رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَت الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّه؛ جَعَلَ الله فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْه شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْته مِنَ الدُّنْيَا إلا مَا قُدِّرَ لَه»**[1].

---

(١) **صحيح:** أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥)، وأحمد (١٨٣/٥).

قلت: إسناده صحيح.

وسادسها: أن مُحِبَّهَا أشدُّ الناس عذابًا بِها، وهو معذب فِي دوره الثلاث؛ يعذب فِي الدنيا بتحصيلها، والسعي فيها، ومنازعة أهلها، وفِي دار البرزخ بفواتِها، والحسرة عليها، وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجهٍ لا يرجو اجتماعه به أبدًا، ولَمْ يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه؛ فهذا أشد الناس عذابًا فِي قبره، يعمل الهمُّ والغمُّ، والحزن، والحسرة فِي روحه ما تعمل الديدان وهوام الأرض فِي جسمه.

قال -تعالى-: ﴿**فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾ [التوبة:٥٥].

قال بعض السلف: "يعذبُهم بجمعها، وتزهق أنفسهم بحبها، وهم كافرون بمنع حق الله فيها".

وسابعها: أن عاشقها ومُحبَّها الذي يؤثرها على الآخرة من أسفه الخلق وأقلهم عقلاً، إذ آثر الخيال على الحقيقة، والمنام على اليقظة، والظل الزائل على النعيم الدائم، والدار الفانية على الدار الباقية، وباع حياة الأبد فِي أرغد عيش بحياة إنَّما هي أحلام نوم أو كظل زائل؛ إن اللبيب بِمثلها لا يخدع؛ كما نزل أعرابِي بقوم؛ فقدَّموا له طعامًا؛ فأكل، ثُمَّ قام إلَى ظلِّ خيمة؛ فنام، فاقتلعوا الخيمة؛ فأصابته الشمس؛ فانتبه، وهو يقول:

إن امــرؤٌ دنياهُ أكْبــرُ همِّــهِ ... لَمُسْتَمْسِكٌ مِنهـــا بِحَبْلِ غَرور

وكان بعض السلف يتمثل بِهذا البيت:

يا أَهْلَ اللّذاتِ دنيا لا بقاءَ لَها ... إنَّ اغترارًا بظِلٍ زائــلٍ حُمــقٌ"

❊ ❊ ❊ ❊ ❊



فصل
في ذكر أمثلة تبين حقيقة الدنيا (١)

المثال الأول:

- للعبد ثلاثة أحوال:

حالة لَمْ يكن فيها شيئًا؛ وهي: ما قبل أن يوجد.

وحالة أخرى؛ وهي: من ساعة موته إِلَى ما لا نِهاية له فِي البقاء السرمدي؛ فلنفسه وجود بعد خروجها من البدن: إما فِي الجنة، وإما فِي النار، ثُمَّ تعاد إِلَى بدنه؛ فيجازى بعمله، ويسكن إحدى الدارين فِي خلود دائمٍ.

ثُمَّ ما بين هاتين الحالتين -وهي ما بعد وجوده، وما قبل موته- حالة متوسطة، وهي: أيام حياته؛ فلينظر إِلَى مقدار زمانِها وأنسبه إِلَى الحالتين يعلم أنه أقل من طرفة عين فِي مقدار عمر الدنيا.

ومن رأى الدنيا بِهذه العين لَمْ يركن إليها، ولَمْ يبال كيف تقضت أيامه فيها فِي ضُرٍّ وضيقٍ أو سعة ورَفَاهِيَة.

ولِهذا لَمْ يضع رسول الله ﷺ لبنةً على لبنة ولا قصبةً على قصبة، وقال: **«مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، إِنَّمَا مثلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إلا كَرَاكِبٍ، قَالَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»**(٢).

---

(١) بعد أن بيَّن الإمام ابن قيم الجوزية -رحمه الله- أوجه إفساد الدنيا للدين؛ ضرب أمثلة تبين حقيقة الدنيا، وتفاهتها، وسفاهة من آثرها على دار الخلد وجوار الْمَلك الرحمن.

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وأحمد فِي "المسند" (١/٣٩١و٤٤١)، و"الزهد" (٦٨٣)، ونعيم بن حماد في "زوائد الزهد" (١٩٥)، وابن سعد فِي "الطبقات" (١/١٦٧)، والحاكم (٤/٣١٠)، وابن أبي الدنيا في "ذم الدنيا" (١٣٣)، و"قصر الأمل" (١٢٦)، وابن أبي عاصم في "الزهد" (١٨٣)، وعنه أبو الشيخ فِي "الأمثال" (١٩٨-١٩٩)، وأبو نعيم فِي =

وقال: «**ما الدُّنيا فِي الآخِرَةِ إلا كَمَا يَجْعَلُ أَحَدكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ؛ فَلْيَنْظُر بِمَ يَرْجِعُ**»[1].

وإلَى هذا أشار المسيح عليه السلام بقوله: «الدنيا قنطرة؛ فاعبروها؛ ولا تعمروها».

وهذا مثل صحيح؛ فإن الحياة معبر إلَى الآخرة، والمهد هو الركن الأول على أول القنطرة، واللحد هو الركن الثانِي على آخرها، ومن الناس من قد قطع نصف القنطرة، ومنهم من قطع ثلثيها، ومنهم من لَمْ يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها، وكيف ما كان؛ فلابد من العبور، فمن وقف يبني على القنطرة ويزينها بأصناف الزينة وهو يستحث العبور؛ فهو فِي غاية الجهل والحمق.

المثال الثاني: شهوات الدنيا فِي القلب كشهوات الأطعمة فِي المعدة، وسوف يَجدُ العَبْدُ عند الموت لشهواتِ الدنيا فِي قلبه من الكراهَةِ والنَّتنِ والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا انتهت فِي المعدة غايتها، وكما أن الأطعمة كلما كانت ألذ طعمًا، وأكثر دسمًا، وأكثر حلاوةً؛ كان رجيعها أقذر، فكذلك كل شهوة كانت فِي النفس ألذ وأقوى؛ فالتأذي بها عند الموت أشد؛ كما أن تَفَجُّع الإنسان بِمحبوبه إذا فقده يقوى بَقَدْر مَحَبَّة الْمَحْبُوب.

وفِي "المسند" أن النَّبيَّ ﷺ قال للضحاك بن سفيان: «**أَلَسْتَ تُؤتى بِطَعامِكَ**

=

"الحلية" (١٠٢/٢ و٢٣٤/٤)، والرامهرمزي فِي "الأمثال" (٢٠)، وأبو الشيخ فِي "أخلاق النَّبِي" (١٦٥)، والأصبهانِي فِي "الترغيب والترهيب" (ق١٤٣/ب)، والبيهقي في "شعب الإيْمان" (١٠٤١٥)، و"دلائل النبوة" (٢٩٢/١)، وأبو يعلى (٥٢٢٩ و ٥٥٩٢)، والطبرانِي في "الأوسط" (٣١٠/٤)، من طريق المسعودي عن عمرو بن مرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.

قلت: إسناده صحيح.

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨).

وقَد مُلِّحَ وَقُزِّحَ ثُمَّ تَشرَبُ عَلَيهِ المَاءَ واللَّبَنَ. قال: بلى. قال: **فَإِلَى مَاذَا يَصِيرُ**؟ قال: إِلَى ما قد علمت. قال: **فَإِنَّ الله ﷻ ضَرَبَ مَثَلَ الدُّنيا لما يَصيرُ إليه طعامُ ابنِ آدَم**»[(١)].

كان بعض السلف يقول لأصحابه: "انطلقوا حَتَّى أريكم الدنيا؛ فيذهب بِهم إلى مزبلة؛ فيقول: انظروا إِلَى ثِمارهم، ودجاجهم، وعسلهم، وسمنهم".

المثال الثالث: لَها ولأهلها فِي اشتغالِهم بنعيمها عن الآخرة وما يعقبهم من الحسرات.

مثل أهلها فِي غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينةً؛ فانتهت بِهم إِلَى جزيرة؛ فأمرهم الملاح بالخروج؛ لقضاء الحاجة، وحذرهم الإبطاء؛ وخوفهم مرور السفينة؛ فتفرقوا فِي نواحي الجزيرة.

فقضى بعضهم حاجته، وبادر إِلَى السفينة؛ فصادف المكان خاليًا؛ فأخذ أوسع الأماكن، وألينها، وأوفقها لمراده.

ووقف بعضهم فِي الجزيرة ينظر إِلَى أزهارها وأنوارها العجيبة، ويسمع نغمات طيورها، ويعجبه حسن أحجارها، ثُمَّ حدثته نفسه بفوت السفينة وسرعة مرورها، وخطر ذهابِها، فلم يصادف إلا مكانًا ضيقًا؛ فجلس فيه.

وأكبّ بعضهم على تلك الحجارة المستحسنة والأزهار الفائقة؛ فحمل منها حمله، فلما جاء لَمْ يجد فِي السفينة إلا مكانًا ضيقًا، وزاده حمله ضيقًا؛ فصار

---

(١) **حسن لغيره**: أخرجه أحمد (٣/٤٥٢)، وابن أبِي الدنيا فِي "الجوع" (١٦٤/١٠٦)، والطبراني فِي "الكبير" (٨١٣٨)، من طريق حماد بن زيد عن علي بن زيد بن جدعان عن الحسن عن الضحاك (وذكره).

قال المنذري (٤/١٠٢): "رواه أحمد، ورواته رواة الصحيح؛ إلا علي بن زيد بن جدعان".

قلت: إسناده ضعيف؛ فيه علي بن زيد وهو ضعيف، والحسن مدلس، وقد عنعنه.

وللحديث شاهد من حديث أُبَي بن كعب، وآخر من حديث سلمان، وقد خرجتهما فِي "عدة الصابرين" (ص٢٧٩-٢٨٠)، وهو بِهما حسن.

محموله ثقلاً عليه ووبالاً، ولَمْ يقدر على نبذه، بل لَمْ يجد من حمله بُدًّا، ولَمْ يجد له فِي السفينة موضعًا؛ فحمله على عنقه، وندم على أخذه؛ فلم تنفعه الندامة، ثُمَّ ذبلت الأزهار، وتغيرت رائحتها، وآذاه نتنها.

وَتَوَلَّجَ بعضهم فِي تلك الغياض، ونسي السفينة، وأبعد فِي نزهته، حَتَّى أن الملاح نادى بالناس عند دفع السفينة؛ فلم يبلغه صوته؛ لاشتغاله بِملاهيه؛ فهو تارةً يتناول من الثمر، وتارة يشمّ تلك الأزهار، وتارة يعجب من حسن الأشجار، وهو على ذلك خائف من سبع يخرج عليه، غير منفك من شوك يتشبث فِي ثيابه، ويدخل فِي قدميه، أو غصن يجرح بدنه، أو عوسجٍ يخرق ثيابه، ويهتك عورته، أو صوت هائل يفزعه.

ثُمَّ من هؤلاء من لحق السفينة، ولَمْ يبق فيها موضع؛ فمات على الساحل.

ومنهم من شغله لهوه؛ فافترسته السباع، ونَهشته الحيات.

ومنهم من تاه؛ فهام على وجهه حَتَّى هلك.

فهذا مثال أهل الدنيا فِي اشتغالِهم بِحظوظهم العاجلة، ونسيانِهم موردهم وعاقبة أمرهم، وما أقبح بالعاقل أن تغره أحجار ونبات يصير هشيمًا قد شغل باله، وعوَّقه عن نجاته، ولَمْ يصحبه.

المثال الرابع: للدنيا وأهلها ما مثلها به النَّبِيُّ ﷺ كظلّ شجرة؛ والمرء مسافر فيها إِلَى الله؛ فاستظل فِي ظل تلك الشجرة فِي يوم صائف ثُمَّ راح وتركها.

فتأمّل حسن هذا المثال، ومطابقته للواقع سواء؛ فإنَّها فِي خضرتِها؛ كشجرة وفِي سرعة انقضائها وقبضها شيئًا فشيئًا؛ كالظل، والعبد مسافر إِلَى ربه، والمسافر إذا رأى شجرةً فِي يوم صائفٍ لا يحسن به أن يبني تحتها دارًا، ولا يتخذها قرارًا، بل يستظل بِها قدر الحاجة، ومتَى زاد على ذلك انقطع عن الرفاق.

المثال الخامس: تمثيله لَها ﷺ بِمدخل إصبعه فِي اليَمِّ، فالذي يرجع به إصبعه

من البحر هو مثل الدنيا بالنسبة إلَى الآخرة.

وهذا من أحسن الأمثال؛ فإن الدنيا منقطعة فانية، ولو كانت مدتها أكثر مِمَّا هي، والآخرة أبدية لا انقطاع لَها، ولا نسبة للمحصور إلَى غير المحصور، بل لو فرض أن السموات والأرض مملوءتان خردلاً، وبعد كل ألف سنة طائر ينقل خردلةً لفنِي الخردل والآخرة لا تفنى؛ فنسبة الدنيا إلَى الآخرة فِي التمثيل كنسبة خردلة واحدةٍ إلَى ذلك الخردل.

المثال السادس: ما مثلها به ﷺ فِي الحديث المتفق على صحته من حديث أبِي سعيد الخدري ﷺ قال: قام رسول الله ﷺ فخطب الناس، فقال: «**لا والله مَا أَخْشَى عَلَيْكُم إلا مَا يُخرِجُ الله لكُمْ مِن زَهْرَةِ الدُّنيا**. فقال رجل: يا رسول الله! أَوَيأتِي الخير بالشر؟ فصمت رسول الله ﷺ، ثُمَّ قال: **كَيْفَ قُلْت**؟ قال: يا رسول الله! أَوَيأتِي الخير بالشر؟ فقال رسول الله ﷺ: **إن الخَيْرَ لا يأتي إلا بالخَيْرِ، وإن مِمَّا يُنْبتُ الرَّبيعُ ما يَقْتُلُ حبطًا أو يُلمَّ، إلا آكلةُ الْخضرِ أكلت حَتَّى إذا امتلأت خاصِرَتُها استقبلت الشَّمْسَ؛ فَثَلَطَتْ**[1]**، وَبالَت، ثُمَّ اجْتَرتْ، فَعادَتْ، فَأَكَلَتْ، فَمَنْ أَخَذَ مَالاً بِحقّه بُورِكَ لَهُ فِيه، وَمَنْ أَخَذَ مَالاً بِغَيْرِ حَقّه؛ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الَّذي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ**»[2].

فأخبر ﷺ أنه إنَّما يخاف عليهم الدنيا؛ وسماها: زهرةً؛ فشبهها بالزهر فِي طيب رائحته، وحسن منظره، وقلة بقائه، وأن وراءه ثمرًا خيرًا وأبقى منه.

وقوله: «**إن مِمَّا ينبت الربيع ما يقتل حبطًا أو يلم**»؛ هذا من أحسن التمثيل المتضمن للتحذير من الدنيا والانْهماك عليها، والمسرة فيها، وذلك أن الماشية يروقها نبت الربيع، فتأكل منه بأعينها، فربَّما هلكت حبطًا.

وقوله: «**إلا آكلة الخضر**»؛ هذا تمثيل لمن أخذ من الدنيا حاجته مثله بالشاة

(١) ألقت بعرًا رقيقًا.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٢٧)، ومسلم (١٠٥٢).

الآكلة من الخضر بقدر حاجتها أكلت حَتَّى إذا امتلأت خاصرتاها من الطعام.

وفِي قوله: «**استقبلت عين الشمس؛ فثلطت، وبالت**». ثلاث فوائد:

إحداها: أنَّها لما أخذت حاجتها من المرعى تركته وبركت مستقبلة الشمس؛ لتستمري بذلك ما أكلته.

الثانية: أنَّها أعرضت عما يضرها من الشره فِي المرعى، وأقبلت على ما ينفعها من استقبال الشمس الَّتِي يحصل لَها بحرارتِها إنضاج ما أكلته وإخراجه.

الثالثة: أنَّها استفرغت بالبول والثلط ما جمعته من المرعى فِي بطنها فاستراحت بإخراجه، ولو بقي فيها لقتلها، فكذلك جامع المال مصلحته أن يفعل به كما فعلت هذه الشاة.

وأول الحديث: مثل للشَّره فِي جمع الدنيا الحريص على تحصيلها؛ فمثاله: مثال الدابة الَّتِي حملها شره الأكل على أن يقتلها حبطًا أو يلمّ إذا لَمْ يقتلها؛ فإن الشَّرِهَ الحريص إما هالك وإما قريب من الهلاك؛ فإن الربيع ينبت أنواع البقول والعشب؛ فتستكثر منه الدَّابة حَتَّى ينتفخ بطنها لما جاوزت حد الاحتمال؛ فتنشق أمعاؤها وتَهلك، كذلك الذي يجمع الدنيا من غير حلها ويحبسها أو يصرفها فِي غير حقِّها.

وآخر الحديث: مثل للمقتصد بآكلة الخضر الذي تنتفع الدابة بأكله، ولَمْ يحملها شرهها وحرصها على تناولها منه فوق ما تحتمله، بل أكلت بقدر حاجتها، وهكذا هذا أخذ ما يحتاج إليه ثُمَّ أقبل على ما ينفعه، وضرب بول الدابة وثلطها مثلاً لإخراجه المال فِي حقه؛ حيث يكون حبسه وإمساكه مضرًّا به، ونجا من وبال جمعه بأخذ قدر حاجته منه، ونجا من وبال إمساكه بإخراجه؛ كما نجت الدابة من الهلاك بالبول والثلط.

وفِي هذا الحديث: إشارة إلَى الاعتدال والتوسط بين الشَّرَهِ فِي المرعى القاتل بكثرته، وبين الإعراض عنه وتركه بالكلية؛ فتهلك جوعًا.

وتضمن الخبر -أيضًا-: إرشاد المكثر من المال إِلَى ما يحفظ عليه قوته وصحته فِي بدنه وقلبه، وهو الإخراج منه وإنفاقه، ولا يحبسه؛ فيضر حبسه، وبالله التوفيق.

المثال السابع: مثلها مثل البحر الذي لابدَّ للخلق كلِّهم من ركوبه؛ ليقطعوه إِلَى الساحل الذي فيه دورهم، وأوطانُهم، ومستقرهم، ولا يمكن قطعه إلا فِي سفينة النجاة؛ فأرسل الله رسله؛ لتعرف الأمم اتِّخاذ سفن النجاة، وتأمرهم بعملها وركوبِها، وهي: طاعته، وطاعة رسله، وعبادته وحده، وإخلاص العمل له، والتشمير للآخرة، وإرادتُها، والسعي لَها سعيها.

فنهض الموفقون، وركبوا السفينة، ورغبوا عن خوض البحر لما علموا: أنه لا يقطع خوضًا ولا سباحةً.

وأما الحمقاء؛ فاستصعبوا عمل السفينة وآلاتِها والركوب فيها، وقالوا: نخوض البحر؛ فإذا عجزنا قطعناه سباحةً -وهم أكثر أهل الدنيا-؛ فخاضوه، فلما عجزوا عن الخوض أخذوا فِي السباحة حَتَّى أدركهم الغرق، ونجا أصحاب السفينة؛ كما نجوا مع نوح عليه السلام وغرق أهل الأرض.

فتأمل هذا المثل، وحال أهل الدنيا فيها، يتبيَّن لك مطابقته للواقع، وقد ضرب هذا المثل للدنيا والآخرة والقدر والأمر؛ فإن القدر بحر، والأمر فيه سفينة لا ينجو إلا من ركبها.

المثال الثامن: مثالها مثال إناء مملوءٍ عسلاً رآه الذُّباب؛ فأقبل نحوه: فبعضه قعد على حافة الإناء، وجعل يتناولُ منه العسل حَتَّى أخذ حاجته، ثُمَّ طار.

وبعضه حمله الشره على أن رمى بنفسه فِي لجة الإناء ووسطه؛ فلم يدعه انغماسه فيه أن يتهنأ به إلا قليلاً حَتَّى هلك فِي وسطه.

المثال التاسع: مثال حَبٌّ قد نُثِرَ على وجه الأرض، وجُعِلَتْ كلُّ حبَّةٍ فِي فخٍّ، وجعل حول ذلك الحبِّ حَب ليس فِي فخاخٍ؛ فجاءت الطير:

فمنها: من قنع بالجوانب، ولَمْ يرم نفسه فِي وسط الحبِّ؛ فأخذ حاجته ومضى.

ومنها: من حمله الشره على اقتحام معظم الحبِّ ووسط الحبِّ؛ فما استتم اللقاط إلا وهو يصيح من أخْذَةِ الفَخِّ لهُ.

المثال العاشر: كمثل رجلٍ أوقد نارًا عظيمةً؛ فجعلت الفراش والجنادب يرون ضوءها؛ فيقصدنَها، ويتهافتون فيها، ومن له علم بِحالِها جعل يستضيء ويستدفئ بِها من بعيد.

وقد أشار النَّبي ﷺ إلَى هذا المثل بعينه فِي حديث عن عمر ﷺ، عن النَّبي ﷺ قال: «**إنِّي مُمْسِكٌ بِحُجَزِكُم عن النَّار، وَتَتَقَاحَمُون فِيهَا تَقَاحُم الفَرَاشِ والجَنَادِبِ، ويُوشك أَنْ أُرسِلَ بِحُجَزِكُمْ**»[1].

وفِي لفظ آخر: «**مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَل رَجُلٍ، اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَت الفَرَاشُ وَالجَنَادِبُ يَقْتَحِمْنَ فِيهَا؛ فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُم عَن النار، وَأَنْتم تغلُبُونِي، وتَتَقَاحَمُونَ فيهَا**»[2].

وهذا المثال منطبق على أهل الدنيا المنهمكين فيها؛ فالرسل تدعوهم إلَى

---

(١) **حسن**: أخرجه البزار فِي "البحر الزخار" (٢٠٤)، ويعقوب بن شيبة فِي "مسند عمر" (ص٧٤)، وأبو يعلى الموصلي فِي "المسند الكبير" (٤٨٦-المقصد الأعلى) من طريق مالك بن إسماعيل عن حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر به.

قال الهيثمي فِي "مجمع الزوائد" (٣/٨٥): "ورواه أبو يعلى فِي "الكبير"، والبزار، ورجال الجميع ثقات".

قال يعقوب بن شيبة: "هو حسن الإسناد غير أن فِي إسناده رجل مجهول".

قلت: يعني حفص بن حميد القمي، وليس كما قال؛ فقد وثقه جماعة، وفِي "التقريب": "لا بأس به"؛ فالإسناد حسن.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٨٣)، ومسلم (٢٢٨٤) من حديث أبِي هريرة ﷺ.

الآخرة، وهم يتقاحمون في الدنيا تقاحم الفراش.

المثال الحادي عشر: مثل قوم خرجوا في سفر بأموالهم وأهليهم؛ فمروا بوادٍ مشعبٍ كثير المياه والفواكه؛ فَنَزلوا به، وضربوا خيمهم، وبنوا هنالك الدور والقصور؛ فمر بِهم رجل يعرفون نصحه وصدقه وأمانته؛ فقال: إنِّي رأيت بعينِي هاتين الجيش خلف الوادي وهو قاصدكم؛ فاتبعونِي أسلك بكم على غير طريق العدو فَتَنْجوا منه؛ فأطاعته طائفة قليلة، فصاح فيهم: يا قوم النجاة النجاة أتيتم أتيتم، وصاح السامعون له بأهليهم وأولادهم وعشائرهم فقالوا: كيف نرحل من هذا الوادي؛ وفيه مواشينا وأموالنا ودورنا وقد استوطناه؟ فقال لَهم الناصح: لينج كل واحدٍ منكم بنفسه مِمَّا خف عليه من متاعه، وإلا فهو مأخوذ، وماله مجتاح، فثقل على أصحاب الجد والأموال ورؤساء القوم النقلة ومفارقة ما هم فيه من النعيم والرفاهية والدعة، وقال كل أحمق: لي أسوة بالقاعدين؛ فهم أكثر منِّي مالاً وأهلاً فما أصابَهم أصابنِي معهم، ونَهض الأقلون مع الناصح ففازوا بالنجاة، وصبح الجيش أهل الوادي؛ فقتلهم واجتاح أموالهم.

وقد أشار النَّبيُّ ﷺ إلَى هذا المثل بعينه فِي الحديث المتفق على صحته من حديث أبِي بردة عن أبِي موسى عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ، فَقَالَ: يَا قومِ! إنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بعَيْنِي، وَأَنَا النَّذيرُ العُرْيَان؛ فالنَّجَاة النَّجَاة، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ من قَوْمِهِ؛ فَأَدلَجوا، وَانطَلَقوا على مَهْلِهِم؛ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُم، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهم، فَصَبَّحَهُم الجَيْشُ؛ فَأَهلَكَهُم وَاجْتَاحَهُم، فَذَلِك مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي واتَّبَعَ مَا جِئتُ به، ومَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بما جِئْتُ بِهِ مِنَ الحَقِّ**»(١).

المثال الثانِي عشر: رجل هيَّأ دارًا وزَيَّنَها، ووضع فيها من جميع الآلات، ودعا الناس إليها؛ فكلما دخل داخل أجلسه على فراش وثير، وقدَّم إليه طبقًا من

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٣)، ومسلم (٢٢٨٣).

ذهبٍ عليه لحم، ووضع بين يديه أوانٍ مفتخرة فيها من كل ما يحتاج إليه، وأخدمه عبيده ومماليكه.

فعرف العاقل: أن ذلك كله متاع صاحب الدار وملكه وعبيده؛ فاستمتع بتلك الآلات والضيافة مدة مقامه فِي الدار، ولَمْ يعلق قلبه بِها، ولا حدث نفسه بتملكها، بل اعتمد مع صاحب الدار ما يعتمده الضيف يجلس حيث أجلسه، ويأكل ما قدَّمه له، ولا يسأل عما وراء ذلك؛ اكتفاءً منه بعلم صاحب الدار وكرمه، وما يفعله مع ضيوفه؛ فدخل الدار كريْمًا، وتمتع فيها كريْمًا، وفارقها كريْمًا، وربُّ الدار غير ذامٍّ له.

وأما الأحمق: فحدث نفسه بسكنى الدار، وحوز تلك الآلات إلَى ملكه، وتصرفه فيها بحسب شهوته وإرادته؛ فتخير المجلس لنفسه؛ وجعل ينقل تلك الآلات إلَى مكان فِي الدار يخبؤها فيه، وكلما قدَّم إليه ربُّها شيئًا أو آلةً حدث نفسه بملكه واختصاصه به عن سائر الأضياف، وَرَبُّ الدَّار يشاهد ما يصنع، وكرمه يمنعه من إخراجه من داره، حَتَّى إذا ظن أنه قد استبد بتلك الآلات وملك الدار، وتصرف فيها وفِي آلاتِها تصرف المالك الحقيقي، واستوطنها واتَّخذها دارًا له، أرسل إليه مالكها عبيده؛ فأخرجوه منها إخراجًا عنيفًا، وسلبوه كل ما هو فيه، ولَمْ يصحبه من تلك الآلات شيء، وحصل على مقت ربِّ الدار له وافتضاحه عنده وبين مماليكه وحشمه وخدمه.

فليتأمَّل اللبيب هذا المثال حقّ التأمُّلِ؛ فإنه مطابق للحقيقة، والله المستعان.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «كل أحدٍ فِي هذه الدنيا ضيف، وماله عارية؛ فالضيف مرتحل، والعارية مؤداة»[1].

وفِي "الصحيحين" عن أنس بن مالك ﷺ قال: مات ابن لأبِي طلحة من

---

(١) أخرجه البيهقي فِي "شعب الإيْمان" (١٠٦٤٤/٣٧٦/٧).

أم سليم؛ فقالت لأهلها: «لا تحدثوا أبا طلحة حَتَّى أكون أنا أحدثه، فجاء؛ فقربت إليه عشاءً؛ فأكل وشرب، وقال: ثُمَّ تصنعت له أحسن ما كانت تَصْنَعُ قبل ذلك؛ فوقع بِها؛ فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها، قالت: يا أبا طلحة! أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت؛ فطلبوا عاريتهم، أَلَهُم أن يَمنعوهم؟ قال: لا، قالت: فاحتسب ابنك، قال: فغضب، قال: تركتينِي تلطخت ثُمَّ أخبرتينِي بابنِي؛ فانطلق حَتَّى أتى رسول الله ﷺ؛ فأخبره بِما كان منها، فقال رسول الله ﷺ: **بَارَكَ الله لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا**»، وذكر الحديث[١].

المثال الثالث عشر: قوم سلكوا مفازةً، فاجأهم العطش، فانتهوا إِلَى البحر، وماؤه أمرُّ شيء؛ وأملحه، فلشدة عطشهم لَمْ يجدوا طعم مرارته وملوحته، فشربوا منه، فلم يرووا، وجعلوا كلما ازدادوا شربًا ازدادوا ظمأ؛ حَتَّى تقطعت أمعاؤهم، وماتوا عطشى.

وعلم عقلاؤهم: أنه مُرٌّ مالح، وأنه كلما ازداد الشارب منه ازداد ظمؤه؛ فتباعدوا عنه مسافةً حَتَّى وجدوا أرضًا حلوةً؛ فحفروا فيها قليبًا، فنبع لَهم ماء عذب فرات؛ فشربوا، وعجنوا، وطبخوا، ونادوا إخوانَهم الذين على حافة البحر هلموا إِلَى الماء الفرات:

وكان منهم المستهزئ.

ومنهم المعرض الراضي بِما هو فيه.

وكان المجيب واحدًا بعد واحد.

وهذا المثل بعينه ضربه المسيح ﷺ، فقال: «مثل طالب الدنيا؛ كمثل شارب ماء البحر؛ كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا حَتَّى يقتله»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠١)، ومسلم (٢١٤٤) واللفظ له.

(٢) أخرجه ابن أبِي الدنيا فِي "ذم الدنيا" (٣٤٢).

المثال الرابع عشر- وهو من أحسن الأمثلة-: مَلِكٌ بنَى دارًا لَمْ يرَ الراءون، ولَمْ يسمع السامعون أحسن ولا أوسع ولا أجمع لكلِّ ملاذِّ النفوس منها، ونصب إليها طريقًا، وبعث داعيًا يدعو الناس إليها، وأقعد على الطريق امرأةً جميلةً قد زُيِّنَت بأنواع الزينة، وأُلْبِسَتْ أنواع الحليِّ والحلل، وممر الناس كلهم عليها، وجعل لَها أعوانًا وخدمًا، وجعل تحت يدها ويد أعوانِها زادًا للمارين السائرين إلَى الملك فِي تلك الطريق، وقال لَها ولأعوانِها:

من غض طرفُه عنك، ولَمْ يشتغل بكِ عنِّي، وابتغى منك زادًا يوصله إلَيَّ؛ فاخدميه وزوِّديه، ولا تعوقيه عن سفره إليَّ، بل أعينيه بكل ما يبلغه فِي سفره.

ومن مد إليك عينيه، ورضي بك، وآثرك عليَّ، وطلب وصالك؛ فسوميه سوء العذاب، وأوليه غاية الهوان، واستخدميه، واجعليه يركض خلفك ركض الوحش.

ومن يأكل منك؛ فاخدعيه به قليلاً، ثُمَّ استرديه منه، واسلبيه إياه كله، وسلطي عليه أتباعك وعبيدك، وكلما بالغ فِي محبتك وتعظيمك وإكرامك؛ فقابليه بأمثاله قلًى وإهانةً وهجرًا حَتَّى تنقطع نفسه عليك حسرات.

فتأمل هذا المثال، وحالُ خُطَّاب الدنيا وخُطَّاب الآخرة، والله المستعان.

المثال الخامس عشر: مَلِكٌ خطَّ مدينةً فِي أصح المواضع، وأحسنها هواءً، وأكثرها مياهًا، وشق أنْهارها، وغرس أشجارها، وقال لرعيته: تسابقوا إلَى أحسن الأماكن فيها؛ فمن سبق إلَى مكان؛ فهو له، ومن تخلف سبقه الناس إلَى المدينة، فأخذوا منازلَهم، وتبوءوا مساكنهم فيها، وبقي من أصحاب الحسرات، ونصب لَهم ميدان السباق، وجعل على الميدان شجرةً كبيرةً: لَها ظل مديد، وتحتها مياه جارية، وفِي الشجرة من كل أنواع الفواكه، وعليها طيور عجيبة الأصوات، وقال لَهم: لا تغتروا بِهذه الشجرة وظلها؛ فعن قليل تجتث من أصلها، ويذهب ظلها، وينقطع ثمرها، وتموت أطيارها، وأما مدينة الملك؛ فأُكلها دائم،

وظلها مديد، ونعيمها سرمدي، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فسمع الناس بِها، فخرجوا فِي طلبها على وجوههم؛ فمروا بطريقهم بتلك الشجرة على أثر تعب ونصب وحرٍّ وظمأ، فَنَزلوا كلهم تحتها؛ واستظلوا بظلها، وذاقوا حلاوة ثمرها، وسمعوا نغمات أطيارها؛ فقيل لَهم: إنَّما نزلتم تحتها؛ لتحموا أنفسكم، وتُضمروا مراكبكم للسباق، فتهيئوا للركوب؛ وكونوا على أهبة، فإذا صاح النفير استدركتم حلبة السباق.

فقال الأكثرون: كيف ندع هذا الظل الظليل، والماء السلسبيل، والفاكهة النضجة، والدعة والراحة، ونقتحم هذه الحلبة فِي الحر والغبار والتعب والنصب، والسفر البعيد، والمفاوز المعطشة الَّتِي تتقطع فيها الأمعاء؟ وكيف نبيع النقد الحاضر بالنسيئة الغائبة إلَى الأجل البعيد، ونترك ما نراه إلَى ما لا نراه، وذرة منقودة فِي اليد أولى من درة موعودة بعد غد، خذ ما تراه ودع شيئًا سمعت به، ونحن بنو اليوم وهذا عيش حاضر كيف نتركه لعيش غائب فِي بلدٍ بعيدٍ لا ندري مَتَى نصل إليه؟

ونَهض من كل ألفٍ واحد، وقالوا: والله ما مقامنا هذا فِي ظلٍّ زائلٍ تحت شجرة قد دنا قلعها، وانقطاع ثمرها، وموت أطيارها، ونترك المسابقة إلَى الظل الظليل الذي لا يزول، والعيش الهنيء الذي لا ينقطع إلا من أعجز العجز، وهل يليق بالمسافر إذا استراح تحت ظلٍّ أن يضرب خباءه عليه، ويتخذه وطنه خشية التأذي بالحر والبرد؟ وهل هذا إلا أسفه السفه؟ فالسباق السباق والبدار البدار.

حُكْــمُ الْمَنــيَّة فــي البَرِيَّة جاري	مــا هــذه الدُّنــيا بــدار قــرارِ
اقضُــوا مــآربَكُم سِــراعًا إنَّمــا	أعمــارُكم سَــفَرٌ مِــن الأَســفارِ
وتَراكَضُــوا خَــيْلَ السِّباقِ وبادِروا	أن تُسْــتَرَدَّ فَــإنَّهنَّ عَــوارِي
وَدَعُــوا الإقامَــةَ تَحْــتَ ظِلٍّ زَائِلٍ	أنْــتُم عَلَــى سَــفَرٍ بِهَــذِي الدَّارِ
مَنْ يَرْجُو الإقَامَةَ تَحْتَ طِيب الْعَيشِ فيها	يَبْــني الــرَّجَاء عَلَــى شَــفير هار

وَالْعيشَ كُلَّ العيش بَعْـدَ فِـرَاقِهـَا فـي دَارِ أهْـلِ السَّبَـقِ أكْـرَمُ دَارِ

فاقتحموا حلبة السباق، ولَمْ يستوحشوا من قلة الرفاق، وساروا فِي ظهور العزائم، ولَمْ تأخذهم فِي سيرهم لومة لائم، والمتخلف فِي ظل الشجرة نائم.

فوالله ما كان إلا قليل حتَّى ذوت أغصان تلك الشجرة، وتساقطت أوراقها، وانقطع ثَمرها، ويبست فروعها، وانقطع مشربُها؛ فقلعها قيِّمها من أصلها؛ فأصبح أهلها فِي حرِّ السموم يتقلبون، وعلى ما فاتَهم من العيش فِي ظلها يتحسرون.

أحرقها قيِّمها؛ فصارت هي وما حولها نارًا تلظى، وأحاطت النار بِمن تحتها؛ فلم يستطع أحد منهم الخروج منها.

فقالوا: أين الركب الذين استظلوا معنا تحت ظلها ثُمَّ راحوا وتركوه؟.

فقيل لَهم: ارفعوا أبصاركم تروا منازلَهم؛ فرأوهم من البعد فِي قصور مدينة الملك وغرفها، يتمتعون بأنواع اللذات؛ فتضاعفت عليهم الحسرات ألاَّ يكونوا معهم، وزاد تضاعفها بأن حيل بينهم وبين ما يشتهون، وقيل: هذا جزاء المتخلفين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:١١٨].

المثال السادس عشر: مثال الدنيا كحوض كبير مليء بالماء، وجعل موردًا للأنام والأنعام؛ فجعل الحوض ينقص على كثرة الوارد حتَّى لَمْ يبق منه إلا كدر فِي أسفله، قد بالت فيه الدواب، وخاضته الناس والأنعام؛ كما روى مسلم فِي "صحيحه" عن عتبة بن غزوان: أنه خطبهم، فقال فِي خطبته: «إن الدنيا قد آذنت بصرم[١]، وولت حذاء[٢]، ولَمْ يبق منها إلا صبابة[٣] كصبابة الإناء يتصابُّها صاحبها، وإنكم منتقلون عنها إلَى دار لا زوال لَها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم»[٤].

---

(١) أعلمت بانقطاعها وذهابِها.

(٢) مسرعة.

(٣) البقية اليسيرة من الشراب تبقى أسفل الإناء.

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٦٧).

وقال عبد الله بن مسعود: «إن الله -تعالى- جعل الدنيا كلها قليلاً، فما بقي منها إلا قليل من قليل، ومثل ما بقي منها كالثغب[١] شرب، وبقي كدره»[٢].

المثال السابع عشر: قوم سكنوا مدينةً مدةً من الزمان؛ فكثرت فيها الأحداث والآفات وطرقتها المحن، وأغارت عليها عساكر الجور والفساد؛ فبنى ملكهم مدينةً فِي محل لا يطرقه آفةً ولا عاهة، وعزم على تخريب المدينة الأولى؛ فأرسل إلَى سكانِها؛ فنودي فيهم بالرحيل بعد ثلاث، ولا يتخلف منهم أحد، وأمرهم أن ينقلوا إلَى مدينة الملك الثانية خير ما فِي تلك المدينة وأنفعه وأجله من الجواهر واللآلئ، والذهب والفضة، وما خف حمله من المتاع، وعظم قدره، وصلح للملوك، وأرسل إليهم الأدلاء وآلات النقل، ونَهج لَهم الطريق، ونصب لَهم الأعلام، وتابع الرسل يستحثونَهم بعضهم فِي أثر بعضهم؛ فانقسموا فرقًا:

فالأقلون علموا قصر مدة مقامهم فِي تلك المدينة؛ وتيقنوا أنَّهم إن لَمْ يبادروا بتحصيل خير ما فيها وحمله إلَى مدينة الملك، وإلا فاتَهم ذلك، فلم يقدروا عليه، فرأوا غبنًا أن يقطعوا تلك المدة فِي جمع المفضول والاشتغال به عن الفاضل؛ فسألوا عن خير ما فِي المدينة، وأنفسه، وأحبه إلَى الملك، وأنفعه فِي مدينته، فلما عرفوه لَمْ يلتفتوا إلَى ما دونه، ورأوا أن أحدهم إذا وافى جوهرةً عظيمةً كانت أحب إلَى الملك من أن يوافيه بأحمالٍ كثيرة من الفلوس والحديد ونحوها؛ فكان همُّهم فِي تحصيل ما هو أحب إلَى الملك، وأنفس عنده؛ ولو قلَّ فِي رأي العين.

وأقبلت فرقة أخرى على تعبئة الأحمال المحملة، وتنافسوا فِي كثرتِها، وهم على مراتب:

فمنهم: من أحماله أثمان.

---

(١) الغدير.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٦٤) بنحوه.

ومنهم: من أحمالهم دون ذلك على قدر هممهم، وما يليق بِهم، لكن هممهم مصروفة إلَى تعبئة الأحمال والانتقال من المدينة.

وأقبلت فرقة أخرى على عمارة القصور فِي تلك المدينة، والاشتغال بطيباتِها ولذاتِها ونزهها، وحاربوا العازمين على النقلة، وقالوا: لا ندعكم تأخذون من متاعنا شيئًا؛ فإن شاركتمونا فِي عمارة المدينة واستيطانِها وعيشنا فيها، وإلا لَمْ نمكنكم من النقلة، ولا من شيء من المتاع؛ فوقعت الحرب بينهم، فقاتلوا السائرين؛ فعمدوا إلَى أكل أهليهم وأموالِهم وما نقموا منهم إلا بسيرهم إلَى دار الملك وإجابة داعيه، والرغبة عن تلك الدار متى أمرهم بتركها.

وأقبلت فرقة أخرى على التنَزه والبطالة والراحة والدعة، وقالوا: لا نُتْعِب أنفسنا فِي عمارتِها ولا ننقل منها، ولا نعارض من أراد النقلة، ولا نُحاربُهم، ولا نعاونُهم، وكان للملك فيها قصر فيه حريم له وقد أحاط عليه سورًا، وأقام عليه حرسًا، ومنع أهل المدينة من قربانه، وطاف به القاعدون؛ فلم يجدوا فيه بابًا يدخلون منه؛ فغدوا على جدرانه؛ فنقبوها ووصلوا إلَى حريمه؛ فأفسدوهم، ونالوا منهم ما أسخط الملك وأغضبه وشق عليه، ولَمْ يقتصروا على ذلك حَتَّى دعوا غيرهم إلَى إفساد حريمه والنَّيل منهم، فبينما هم على تلك الحال، وإذا بالنفير قد صاح فيهم كلهم فلم يمكن أحدًا منهم من التخلف، فحملوا على تلك الحال، وأحضروا بين يدي الملك، فاستعرضهم واحدًا واحدًا، وعرضت بضائعهم وما قدموا به من تلك المدينة عليه؛ فقبل منها ما يصلح له، وأعاض أربابه أضعاف أضعاف قيمته، وأنزلهم منازلهم من قربه، ورَدَّ منها ما لا يصلح له، وضرب به وجوه أصحابه، وقابل من نَقَّبَ حماه وأفسد حريمه بِما يقابل به المفسدون، فسألوا الرجعة إلَى المدينة؛ ليعمروا قصره، ويحفظوا حريمه، ويقدموا عليه من البضائع بمثل ما قدم به التجار.

فقال: هيهات، قد خربت المدينة خرابًا لا تعمر بعده أبدًا، وليس بعدها إلا المدينة الَّتِي لا تخرب أبدًا" اهـ باختصار[(١)].

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) لله در ابن القيم من إمام ربانِي؛ فوالذي نفسي بيده إن مثالاً واحدًا مِمَّا قدمه يكفي اللبيب بأن لا يعصي الحبيب طرفة عين؛ فإنَّها سحابة صيف عما قليل تنقشع، فلا يبقى منها أثر ولا عين.

ورحم الله الإمام النووي القائل فِي مقدمة كتابه الثمين: "رياض الصالحين": "... فَحَقَّ عليهم الاعتناء بِما خلقوا له، والإعراض عن حظوظ الدنيا بالزهادة؛ فإنَّها دار نفاد لا محل إخلاد، ومركب عبور لا منْزل حبور، ومشرع انفصام لا موطن دوام؛ فلهذا كان الأيقاظ من أهلها العباد، وأعقل الناس فيها هم الزهاد.

ولقد أحسن القائل:

إن لله عِبَـــادًا فُطَنَـــا ... طَلَّقُوا الدنيا وَخَافوا الفِتَنَا
نَظَرُوا فيها فَلَمَّا عَلِموا ... أنَّها ليست لِحيٍّ وطنَـــا
جَعَلوها لُجَّةً واتَّخذوا ... صالِحَ الأعمَالِ فيها سُفُنَا

فإذا كان حالها ما وصفته، وحالنا وما خلقنا له ما قدَّمته، فحقٌّ على المكلف أن يذهب بنفسه مذهب الأخيار، ويسلك مسلك أولِي النهى والأبصار، ويتأهب لما أشرت إليه، ويهتم بِما نبهت عليه".



الفائدة الحادية عشرة
أمم الكفر لن تستطيع استئصال أمة الإسلام

لقد أخبر رسول الله ﷺ بـ«**تداعي الأمم**». على أمة الإسلام؛ لكنهم لن يستطيعوا استئصال شأفتهم، ولو اجتمعوا عليهم من أقطارها.

عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله زوى**[١] **لِي الأرض؛ فرأيت مشارقها ومغاربَها، وإن أمتِي سيبلغ ملكها**[٢] **ما زوي لي منها، وأعطيت الكنْزين الأحمر والأبيض**[٣]**، وإنِّي سألت ربِّي لأمتِي ألاَّ يهلكها بسنة عامة**[٤]**، وألاَّ يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم؛ فيستبيح بيضتهم**[٥]**، وإن ربِّي قال: يا مُحمَّد! إنِّي قضيت قضاء؛ فإنه**

(١) جمع وضم.

(٢) هذا دليل قاطع على أن الإسلام سيسيطر على الكرة الأرضية، وهو يستلزم انتشار الإسلام، وأنه سيبلغ مبلغ الليل والنهار، لا العكس؛ فتأمل.
وقد وردت الروايات بالأمرين؛ فتدبر.

(٣) الذهب والفضة، وهما كنْزا كسرى وقيصر ملكي فارس والروم.
قلت: وقد تحقق هذا الموعود النبوي؛ فملك المسلمون عرش كسرى وملك قيصر.
وهذا كله مقدمة للفتح الأعظم والنصر المؤزر، حيث يملك المسلمون مشارق الأرض ومغاربَها.
وكما تحقق الأمر الأول؛ فإن الفتح الأخير قادم لا محالة، ولو كره المشركون، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ولتعلمن نبأه بعد حين.
وقد بسطت هذه المعاني، وأحكمت هاتيك المباني، وارتدت تلك المغاني فِي كتابِي: "المستقبل للإسلام لكن بفهم السلف الكرام".

(٤) القحط الذي يعمهم.

(٥) جماعتهم وأصلهم.

لا يرد، وإنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ ألاَّ أَهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّة، وَأَلاَّ أسَلِّطَ عَلَيْهِم عَدُوًّا مِن سِوَى أَنْفُسِهِم يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُم، وَلَو اجْتَمَعَ عَلَيْهِم مَن بِأَقْطَارِهَا[1] -أو قال: من بَيْنِ أقْطَارِهَا- حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكَ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُم بَعْضًا»[2].

ودلالة ذلك تتجلى فِي الوجوه الآتية:

١- الفتن الداخلية والحروب الأهلية هي الَّتِي تنهك قوى الأمة الإسلامية، وتشتت شملها، وتفرق جمعها، ولذلك؛ فإن أعداء الإسلام يعملون على نشرها، وإيقاد نارها.

٢- مكر أعداء الإسلام ومخططاتُهم ستبوء بالفشل الذريع، وتكون عليهم حسرة.

٣- ينبغي على الأمة الإسلامية أن تُحارب من يحاول تمزيقها إلَى دويلات متناحرة، وشعوب وقبائل متنافرة؛ لأنه أخطر من العدو الخارجي، بل هو الذي يوطئ للعدوان الخارجي، ويطرقه على الأمة، ويدله على عوراتِها.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) أهل الأرض جميعًا.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٨٩).

الفائدة الثانية عشرة
ظهور الدين ولو كره المشركون

إن «**تداعي الأمم**» على المسلمين من كل أفق، وعجزهم عن استئصال هذه الأمة الإسلامية المرحومة لَدليلٌ واضحٌ، وبرهان لائحٌ أن المستقبل للإسلام وحده بإذن الله وحده، ولو كره الكافرون.

ومن تأمل حديث ثوبان الأخير وجد ذلك عيانًا؛ فقد بَشَّر رسول الله ﷺ فِي أوله بالتمكين لِهذه الأمة الإسلامية، وفِي آخره أخبر بعجز «**الأمم**» عن استئصال المسلمين؛ فتبين لذي عينين أن المستقبل لدين الله رغم أنوف أعداء الله.

قال -تعالى-: ﴿**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة:٣٢-٣٣].

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فِي "تفسير القرآن العظيم" (٣٦٢/٢): "يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿**أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ**﴾؛ أي: ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق بِمجرد جدالهم وافترائهم؛ فمثلهم فِي ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه؛ فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لابد أن يظهر؛ ولِهذا قال الله -تعالى- مقابلاً لَهم فيما راموه وأرادوه: ﴿**وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾.

ثُمَّ قال -تعالى-: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ**﴾؛ فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيْمان الصحيح، والعلم النافع، ودين الحق: هو الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة فِي الدنيا والآخرة: ﴿**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ**

كُلِّه﴾؛ أي: على سائر الأديان؛ كما ثبت فِي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إن الله زوى لِي الأرض مشارقها ومغاربَها، وسيبلغ ملك أمَّتي ما زوي لِي منها...»** اهـ[(١)].

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) وانظر -لزامًا- كتابِي: "بصائر ذوي الشرف بشرح مرويات منهج السلف" (ص١٥١-١٦٥)؛ ففيه تأصيل علمي، وتفصيل شرعي بأن المنهج السلفي هو المؤهل، نقلاً، وعقلاً، وقدرًا، وفطرة، وتجربة؛ بأن يكون الوارث الحقيقي للإسلام؛ لأنه الإسلام المصفى الْمُنَزل على رسول الله ﷺ.
وزدته بسطة فِي كتابِي: "المستقبل للإسلام لكن بفهم السلف الكرام"؛ فاظفر به غير مأمور.

الفائدة الثالثة عشرة :
التصفية والتربية طريقنا لاستئناف حياة إسلامية وإقامة خلافة راشدة على منهاج النبوة وتطبيق حكم الله في الأرض

لقد حذر رسول الله ﷺ فِي حديث ثوبان الأول «**تداعي الأمم**» من تكالب أمم الكفر على أمة الإسلام واستضعافها، وبَشَّر فِي حديث ثوبان الأخير بأن كيد الكافرين إلَى بوار، وسعيهم إلَى ضلال، وأن المستقبل للدين المتين رغم أنوف المشركين.

فما الذي جعل ريح المسلمين صبًا بعد ما كانت دبورًا؟ وما الذي أورثهم فرحًا وحبورًا؟

إذن لابد من عملية تغيير كبرى تجعل الأجيال المقهورة أمة منصورة ... ولكن وسائل العلاج اختلف فيها فكانت كثيرة، وهدى الله أهل الحديث أتباع السلف إلَى الصراط المستقيم؛ فكانوا الفرقة الناجية والطائفة المنصورة.

ومثل الأمة الإسلامية فِي ذلك كمثل قوم كانوا يعيشون فِي أرض خصبة، ومياه عذبة، وهواء نقي، وثمار طيبة، فَصَحَّتْ أجسامهم، وقويت أبدانُهم؛ فكان عدوهم يَهابُهم، ويحسب حسابَهم؛ لأنه كلما هاجمهم قهروه، وردوه على أعقابه.

ثُمَّ طال عليهم الأمد؛ فأصبحوا يلقون زبالتهم وأوساخهم فِي نَهرهم الجاري؛ فتكدر ماؤه؛ فسقوا أرضهم منه؛ فأصبحت ثمارهم نكدة، وشربوا منه؛ فصارت أجسامهم عليلة، هزيلة؛ فطمع بِهم عدوهم؛ فغزاهم فِي عقر دارهم، وأخذ بعض ما فِي أيديهم، وأذلهم.

ثُمَّ جاءت أجيال؛ فرأوا ما هم عليه من ضعف، وذل، وصغار؛ فتشاوروا، ثُمَّ صاروا طرائق قددًا.

قال بعضهم: لابد أن نفتح المشافي، ونحضر الأدوية؛ لمقاومة الأمراض، ومعالجة المرضى.

وقال آخرون: لابد من مناجزة أعدائنا؛ فالموت خير من حياة الذل والصغار، وبطن الأرض خير من ظهرها.

وضرب **آخرون** أخماس بأسداس، ولَمْ يستطيعوا حيلة، ولَمْ يهتدوا سبيلاً.

وعقلاء القوم ينظرون ويتفكرون ... فلما رأوا إفلاس قومهم، وخلو جعبتهم من الحق والصواب؛ قالوا: إن أجدادكم وأسلافكم؛ كانوا يشربون من ماء النهر؛ فلوثتموه؛ فصرتم إلَى ما ترون؛ فإن كنتم تريدون أن يرجع إليكم مجد أسلافكم؛ فلابد أن ترجعوا جميعًا إلَى مصدر النهر الصافي؛ فترتوا منه، وتعيشوا حوله؛ لتصح أجسامكم، وتتعافى أبدانكم، وعندئذٍ تقهروا عدوكم.

... **هذه هي الحقيقة:** أن تعود الأمة الإسلامية إلَى مصدر النهر قبل أن يلوث، وتلقى فيه الأوساخ، والقاذورات، ونفايات الأمم الهالكة[1].

ولقد بيَّن تفاصيل هذه الحقيقة الشرعية الكونية شيخنا أسد السنة النبوية، ورافع لواء الدعوة السلفية العلية أبو عبد الرحمن مُحمَّد بن ناصر الدين بن نوح نجاتِي بن آدم الألبانِي -قدس الله روحه، ونور عليه ضريحه- على مدار نصف قرن.

وقد جمعت خلاصة ذلك، وسميته: "معالم المنهج السلفي في التغيير".

---

(١) كما جاء صريْحًا فِي حديث: «**إذا تبايعتم بالعينة**»، وسيأتِي توجيه ذلك فِي كلام شيخنا الألبانِي -رحِمه الله- (ص٧٥).



معالم المنهج السلفي في التغيير

المنتخب

من كلام شيخ الإسلام الإمام الرباني

محمد ناصر الدين بن نوح نجاتي بن آدم الألباني

رحمه الله تعالى وأسكنه الفردوس الأعلى بمنه وكرمه

(١٣٣٢ هـ - ١٤٢٠هـ)

انتخبه ولخصه ونسقه وعلق عليه

تلميذه

أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي السلفي

كان الله له وعفا عنه بمنه وكرمه

قال شيخنا إمام أهل السنة والجماعة -رحمه الله تعالى-:

"فنحن اليوم -كما تعلمون جَميعًا- فِي زمنٍ وصل فيه المسلمون إلى حد -لا يمكن أن يصل إلَى أسوأ منه مسلم يؤمن بالله ورسوله- من الذُّلِّ والاستعباد من الآخرين، ولشعور كلٍّ منا بِما نزل بنا من هذا الذُّلِّ المخيِّم على جَميع البلاد الإسلامية؛ نتساءل دائمًا عن السبب الذي أدى بالمسلمين إلَى هذه الحالة المزرية السيئة، والوضع المهين المخزي؟ والسر فِي وصولِهم إلَى هذا الدرك المنحط من الذُّلِّ؟

كما نتساءل عن العلاج والدواء؛ لنتمكن من النجاة من هذا الذل والشقاء؟

ثُمَّ تتنوع الآراء وتتعدد الملاحظات، وكلٌّ يأتي بِمنهج -أو سبيل- يرتئيه لحل هذه المشكلة، ومعالجة هذه المعضلة.

وأنا أرى أن هذه المشلكة قد ذكرها الرسول -عليه الصلاة والسلام-، ووصفها فِي بعض أحاديثه الثابتة عنه، وبَيَّن علاجها.

ومن هذه الأحاديث: قوله -عليه الصلاة والسلام-: **«إذا تَبَايَعتُم بالعِينَة، وَأخَذْتُم أَذْنَابَ البَقَرِ، وَرَضِيتُم بِالزَّرْعِ، وتَركْتُمْ الجِهَادَ؛ سَلَّطَ الله عَلَيْكُمْ ذُلاًّ، لا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إلَى دِينِكُمْ»**[1].

فنجد فِي هذا الحديث: ذكر المرض الذي شاع حَتَّى أحاط بالمسلمين؛ فذكر رسول الله ﷺ نوعين من المرض، على سبيل التمثيل لا التحديد:

النوع الأول: هو وقوع المسلمين فِي بعض المحرمات بالاحتيال عليها، وهم على علم بِها، وهذا كامنٌ فِي قوله -عليه الصلاة والسلام-: **«إذا تبايعتم بالعينة»**؛

(١) "الصحيحة" (١١).

فالعينة: نوع من البيع يشير هذا الحديث إلَى تحريمه، ومع ذلك رأى بعض العلماء جواز هذه المبايعة.

وصورتُها: أن يشتري الرجل من التاجر بضاعةً ما بثمن يُدفع على أقساط وبأجلٍ محدود، ثُمَّ يعود هذا المشتري بائعًا لتلك البضاعة للبائع الأول بثمن أقل من الثمن الذي اشتراها به؛ ولكن مقابل النقد، فيدفع البائع الأول -الذي صار مشتريًا- الثمن نقدًا بأقل مِمَّا اشترى هو تقسيطًا ودَيْنًا، فيسجل عليه الوفاء بالزيادة؛ فهذه الزيادة ربا.

والمفروض فِي المسلم ألاَّ يستحِلَّ هذا النوع من بيع العينة ما دام هناك زيادة فِي الوفاء؛ لأن هذه الزيادة ربا مكشوف، ولكن بعض الناس رأوا إباحة ذلك؛ لأنَّها وضعت فِي باب البيع والشراء، واستدلوا على ذلك بالعمومات الَّتِي تدل على جواز البيع؛ كمثل الآية المشهورة: ﴿**وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا**﴾ [البقرة: ٢٧٥]؛ فقالوا: هذا بيع وشراء؛ فلا بأس أن يزيد أو ينقص (!).

ولكن الحقيقة: أن المشتري الذي اشترى بعشرة آلاف نسيئة، ثُمَّ باع بثمانية آلاف نقدًا؛ إنَّما يريد من وراء ذلك أن يأخذ ثمانية آلاف، ولما كان يعلم أن هذا البائع لا يقرضه ثمانية آلاف مقابل ثمانية آلاف لوجه الله -تعالى-، وإنَّما يريد زيادة؛ احتالا جميعًا على استحلال هذه الزيادة باسم البيع.

ورسول الله ﷺ مُبيِّنٌ للناس؛ كما قال ربنا -تبارك وتعالى-: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾ [النحل:٤٤].

وهو كما وصفه ربنا -تبارك وتعالى- بقوله: ﴿**بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة:١٢٨]؛ **فمن رأفته ورحْمته بنا -عليه الصلاة والسلام-**: أن نبهنا على مكامن احتيال الشيطان على بنِي الإنسان، وحذرنا أن نقع فِي أحابيله فِي أحاديث كثيرة جدًّا؛ منها ما نحن الآن فِي صدده، فقال -عليه الصلاة والسلام-: «**إذا تبايعتم**

بالعينة»؛ أي: إذا استحللتم ما حرم الله ورسوله بأدنى الحيل باسم أن هذا بيع، والحقيقة أنه ستار، وأنه استدانة مقابل زيادة، وهذا ربا مكشوف؛ فحذرنا الرسول ﷺ فِي هذا الحديث من أن نقع فِي مثل هذا الاحتيال؛ لاستحلال ما حرم الله، فذلك أخطر من أن يقع المسلم فِي الحرام وهو يعلم أنه حرام؛ لأنه يُرجَى له يومًا ما أن يعود إِلَى ربه، ويتوب؛ لأنه على علم بأن ما يفعله حرام.

أما إذا كان قد زُيِّن له سوءُ عمله -لسبب من الأسباب؛ إما بالتأويل الخطأ، أو بالجهل البالغ، فظن أن عمله لا شيء فيه-؛ فبدهي ألاَّ يخطر فِي باله يومًا ما أن يتوب إِلَى الله ﷻ، فكان خطر المحرم المستحل فكريًّا واعتقاديًّا أشد بكثير من المحرم المكشوف.

فالذي يأكل الربا، ويعلم أنه ربا، ويعتقد أنه ربا؛ هذا -مع أنه يحارب الله ورسوله كما فِي نص الآية- خطره فِي النتيجة أيسر من ذاك الذي يأكل الربا، وهو يعتقد أنه إنَّما يأكل حلالاً، هذا كمثل الذي يشرب المسكر، ويعتقد أنه حرام؛ فيُرجى أن يتوب إِلَى الله ﷻ، أما الذي يشرب المسكر، وهو يعتقد -لسببٍ ما- أنه شراب حلال؛ فهذا أخطر من ذاك؛ لأنه لا يتصور أن يتوب عنه أبدًا ما دام يسيء فهم حكم هذا الأمر[1].

والرسول ﷺ فِي هذا الحديث ذكر "بيع العينة" على سبيل التمثيل لا التحديد؛ فيشير إِلَى أن كل حرام يرتكبه المسلم مستحلاًّ له بطريقةٍ ما من طرق التأويل؛ فهذا من نتائجه أن يذلَّه الله ﷻ، ويذل بسببه المسلمين إذا فشا فيهم وشاع.

النوع الثاني: من الأشياء الَّتِي يشترك الناس كلهم فِي معرفة مخالفتها للشريعة، فقال: «**إذا تَبَايَعتُم بالعينَة، وَأَخَذْتُم بِأَذْنَابِ البَقَرِ، وَرَضِيتُم بِالزَّرْعِ**»؛ أي:

---

(١) **قلت**: وهكذا البدعة؛ فهي أخطر من المعصية الَّتِي يعلم فاعلها أنَّها معصية.

انشغلتم بالسعي وراء حطام الدنيا، وتحصيل الرزق باسم أن الله ﷻ أمرنا بالسعي وراء الرزق؛ فيبالغ المسلمون فِي سبيل ذلك، وينسون ما فرض الله عليهم من الفرائض، ويلتهون بالسعي وراء الزرع والضَّرْع، وما شابه ذلك من المكاسب؛ فينسيهم ذلك ما فرض الله عليهم من الواجبات، وذكر على سبيل المثال: الجهاد فِي سبيل الله؛ فقال -عليه الصلاة والسلام-: **«إذا تَبَايَعتُم بالعينَة، وَأخَذتُم بِأَذْنَاب البَقَرِ، وَرَضِيتُم بِالزَّرْعِ، وتَركتُمْ الجِهَادَ؛ سَلَّطَ الله عَلَيْكُمْ ذُلاًّ، لا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إلَى دِينِكُمْ»**.

هذا الحديث من أعلام النبوة كما ترون: فقد تحقق فينا هذا الذُّلُّ؛ كما هو مشاهد مع الأسف، فيجب علينا أن نأخذ العلاج من هذا الحديث بعد أن وصف المرض، وما سيثمر هذا المرض من ذلٍّ، فقد تمسكنا بالأدواء، وأدت بنا إِلَى المرض؛ ألا وهو الذُّلُّ، فعلينا إذن أن نعود إِلَى تطبيق الدواء الذي وصفه الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وصرح بأنه إذا رجعنا إليه رفع الله ﷻ عنا هذا الذُّلَّ.

والناس يقرءون هذا الحديث، ويسمعون كثيرًا قوله ﷺ: **«حَتَّى ترجعوا إِلَى دينكم»**؛ فيظنون أن الرجوع إِلَى الدين أمر سهل.

أما أنا؛ فأرى أن الرجوع إِلَى الدين يحتاج إِلَى "هَزِّ أكتاف"[١]؛ لأننا جميعًا نعلم أن هذا الدين قد أصيب بمحاولات كثيرة لتغيير حقائق كثيرة منه، وقد استطاع بعضهم أن يصل إِلَى مثل ذلك التغيير والتحريف؛ فبعض هذا التغيير معروف لدى كثير من الناس، وبعضه ليس كذلك؛ بل على العكس من ذلك عند جماهير الناس؛ فهناك مسائل -بعضها اعتقادية، وبعضها فقهية- يظنون أَنَّها من الدين، وليست من الدين فِي شيء.

والمثال السابق ليس منا ببعيد، وهو العلة الأولى الَّتِي ذكرها الرسول -عليه

(١) مَثَلٌ دارج فِي بلاد الشام (س. هـ).

الصلاة والسلام- فِي هذا الحديث بقوله: «**إذا تبايعتم بالعينة**»؛ فبيع العينة هذا ليس مُسَلَّمًا به عند جميع الناس، أو معروفًا أنه حرام؛ بل لا يزال كثير من العلماء يفتون ببيع العينة، هذه المبايعة الَّتِي فيها الاحتيال على استحلال الربا، وهذا مثال من أمثلة كثيرة جدًّا، يعرفها المشتغلون بالفقه الإسلامي.

وهذا النوع من المبايعة مع تحريم الرسول -عليه الصلاة والسلام- له، وجعله سبب وقوع المسلمين فِي الذُّلِّ؛ هو مثال من عشرات الأمثلة فِي الدلالة على ما ذكرنا؛ وهو أنه يجب أن نفهم الدين من جديد على ضوء الكتاب والسنة.

ونحن حينما نشير إِلَى أن هناك علماء يستبيحون بعض ما جاء النص الصريح فِي السنة بتحريمه؛ لا نريد من وراء ذلك الطعن أو النيل من علم هذا الذي استباح ما جاء فِي الحديث بتحريمه أو ازدراءه.

وإنَّما نريد: نصح المسلمين، ونريد أن نتعاون معهم جميعًا -وبخاصة المشتغلين بالفقه الإسلامي- على فهم ما وقع فيه الانحراف من بعض الناس لأي سبب كان، وذلك بالرجوع إِلَى تحكيم آية كريمة فِي القرآن، وهذه الآية معروفة لدينا جميعًا، ولكن قلَّ من يسعى إِلَى تطبيقها، وهي قوله -تبارك وتعالى-: **﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾** [النساء:٥٩].

فالدارسون للفقه يعلمون أن بيع العينة -وكثيرًا من البيوع- فيه خلاف بين العلماء القدامى فضلاً عن المحدثين، فماذا يفعل العلماء اليوم بمثل هذه المسائل المختلف فيها؟.

والذي أعلمه: أن أكثريتهم الساحقة يقرون هذا الخلاف، وَيَدَعُون القديْم على قِدَمِه؛ كما يقال.

وحين ذلك **أقول**: كيف يرجع المسلمون إلَى دينهم؛ وهو العلاج الذي نص الرسول -عليه الصلاة والسلام- على أنَّهم إن أخذوه رُفِعَ الذُّلُّ عنهم؛ وإلا فلا: «**إذا تَبَايَعتُم بالعينَة، وَأَخَذْتُم أَذْنَابَ البَقَرِ، وَرَضِيتُم بِالزَّرْعِ، وتَركْتُمْ الجِهَادَ؛ سَلَّطَ الله عَلَيْكُمْ ذُلاًّ، لا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**»؟!

إذن العلاج الوحيد هو الرجوع إلَى الدين؛ لكن هذا الدين -كما يعلم الجميع، وبخاصة المتفقهين منهم- مختلف فيه أشد الاختلاف، وليس هذا الاختلاف -كما يظن كثير من الكتاب أو العلماء- محصورًا فِي مسائل فرعية قليلة كما يقولون؛ بل هذا الخلاف يتعداه إلَى المسائل الاعتقادية، فهناك خلاف كبير بين الأشاعرة والماتريدية، وهناك خلاف بين هؤلاء والمعتزلة -فضلاً عن الفرق الأخرى-، وكلهم محسوبون علينا بأنَّهم مسلمون، وكلهم مخاطبون بِهذا الحديث: «**سَلَّطَ الله عَلَيْكُمْ ذُلاًّ، لا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**».

فأي دين هذا الذي ينبغي أن نرجع إليه؟! أهو بِمفهوم مذهب فلان؟! إلَى آخر ما هنالك من مذاهب، ولنحصر الخلاف فِي المذاهب الأربعة الَّتِي نقول: إنَّها من مذاهب أهل السنة.

أي دين هذا الذي هو علاج رفع الذُّلّ عنا؟! فإذا رجعنا إلَى أي مذهب؛ ستجد هنالك بضع مسائل -أو عشر مسائل، أو عشرات المسائل- تخالف السنة؛ إن لَمْ يخالف الكتابَ بعضُها.

لذلك؛ فأنا أرى أن أيَّ إصلاح -يجب أن يقوم به الدعاة إلَى الإسلام، والناشدون لإقامة دولة الإسلام بإخلاص- هو أن يعودوا إلَى أن يُفَهِّمُوا -أولاً- أنفسهم، ويُفَهِّمُوا الأمة -ثانيًا- الدين الذي جاء به الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وذلك لا سبيل إليه -فيما اعْتُقِدَ اتفاقًا بين جميع الفقهاء بأنه لا سبيل إلَى الرجوع إلَى فهم الدين على الحقيقة الَّتِي أنزلها الله ﷻ إلا بدراسة الكتاب والسُّنَّة.

ولا جرم أن الأئمة -رحِمهم الله- وذلك من فضلهم -وفضلُهم من ربِّهم- حذروا أتباعهم الأولين الذين كانوا على علم من أن يتبعوهم، وأن يقلدوهم، ويجعلوهم الأصل فِي الرجوع، وينسوا بذلك أصل الشريعة: الكتاب والسنة.

ولستم بحاجة جميعًا إِلَى أن نسوق لكم أقوال الأئمة الَّتِي تدندن كلها حول الكلمة الَّتِي صحت عنهم جميعًا: "**إذا صح الحديث فهو مذهبِي**"[(١)].

فحسبنا هذا القول منهم الآن، فهذا دليل على أن كل إمام من أولئك الأئمة نَصَح لنفسه، ونصح لأمته وأتباعه حينما أمرهم بأن يرجعوا إِلَى الحديث إذا كان مخالفًا لاجتهاده ورأيه.

فهذا إذن يفتح الطريق -حَتَّى باسم تقليد الأئمة- للرجوع إِلَى الكتاب والسنة.

فنذكر بعض الأمثلة -وهي لا تزال موجودة فِي كتبنا تُدَرَّسْ فِي كل المدارس الشرعية والكليات وما شابه ذلك-:

فِي أحد المذاهب الإسلامية: أن المصلي إذا دخل فِي الصلاة يسدل يديه ولا يقبض ... لماذا؟! ... هكذا المذهب! بينما جهد كل علماء الحديث بأن يأتوا بحديث واحد ولو ضعيف -بل ولو موضوع- على أن الرسول ﷺ كان لا يقبض بيده اليمنى على اليسرى إذا وقف يصلي، هذا لا وجود له، فهل هذا هو الإسلام؟

أنا أعرف أن بعضكم سيقول: إن هذا من المسائل الفرعية، وقد يتساهل بعضهم فِي التعبير؛ يقول: هذا من التوافه!

وأنا أعتقد: أن كل شيء جاء عن رسول الله ﷺ مِمَّا له علاقة بالدين

(١) وقد جمعتها مسندةً إِلَى الأئمة الأربعة -رحِمهم الله-، ورددت على شبهات المقلدين فِي كتابِي: "التعظيم والمنة فِي الانتصار للسنة" (س. ه).
وانظر -لزامًا-: مقدمة "صفة صلاة النَّبِي ﷺ" لشيخنا -رحِمه الله-.

والعبادة؛ فليس من توافه الأمور.

نحن نعتقد: أن كل ما جاء به الرسول -عليه الصلاة والسلام- يجب أن نتبناه دينًا أولاً مع وزنه بأدلة الشريعة؛ إن كان فرضًا؛ ففرضٌ، وإن كان سنةً، فسنةٌ، أما أن نسميه أمرًا تافهًا، أو قشورًا؛ لأنه مستحب؛ فهذا ليس من الأدب الإسلامي فِي شيء إطلاقًا، لاسيما وأن اللب لا يمكن أن نحافظ عليه إلا بالمحافظة على القشر، أقول هذا لو أردت أن أجادلهم باللفظ[1].

هذا المثال اليسير -وهو السدل فِي الصلاة-؛ لماذا يستمر المسلمون على العمل به؛ والأحاديث تَتْرى فِي كل كتب السنة على أن الرسول ﷺ كان يقبض؟![2]، **ليس هناك إلا التقليد والجمود على مخالفة الأئمة فِي قولهم: "إذا صح الحديث فهو مذهبِي"**.

قد لا يُرضي هذا المثال البسيط بعض الناس، فنذكر مثالاً آخر، وهو أن بعض كتب فقه المذاهب ما زالت تذكر بأن الخمر قسمان:

قسم مستنبط من العنب، فهذا قليله وكثيره حرام.

وقسم آخر مستنبط من غير العنب: من الشعير، أو من الذرة، أو من التمر، أو غير ذلك مِمَّا تفنن اليوم الكفار فِي استنباط الخمر منه؛ فهذا النوع من الخمر ليس كله حرامًا، وإنَّما الذي يسكر منه فقط هو حرام! لماذا لا يزال هذا القول مسطورًا؟!

---

(١) وانظر -لزامًا- فِي دحض هذه البدعة كتابِي: "دلائل الصواب فِي إبطال تقسيم الدين إِلَى قشر ولباب" (س. ه).

(٢) بل الإمام مالك -رحِمه الله- الذي ينسب إليه السدل ذكر القبض فِي "الموطأ" (١/١٥٨)، وانظر -غير مأمور-: "هل المسلم ملزم باتباع مذهب معين من المذاهب الأربعة" (ص٥٧- بتحقيقي) (س. ه).

وقد يدافع عنه بعض الناس بألوان من الدفاع! لا لشيء؛ إلا أن إمامًا[1] من أئمة المسلمين اجتهد فقال هذا القول! مع أننا جميعًا -على اختلاف مذاهبنا ومشاربنا- نقرأ في كتب السنة وبالأسانيد الصحيحة قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**ما أَسْكَرَ كَثِيرُه؛ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ**»[2]، و«**كلُّ مسكر خمر، وكلُّ خمر حرامٌ**»[3].

لماذا يظل مثل هذا القول الخطير الذي يشجع الناس -الذين هم على شفا حفرة من الفسق، أو قد وقعوا فيها فعلاً-، ويزين لَهم شرب القليل من خمر غير العنب؛ بحجة أن الإمام الفلاني -وهو عالم فاضل- قال هذا؟! يا للحجة (!).

نحن نعتقد أنه عالِم فاضل؛ ولكن الفرق: أننا لا ننسى أنه عالم فاضل غير معصوم عن الخطأ، وهم يتناسون هذه الحقيقة، فيظلون يدافعون عن هذه الكلمة، بعضهم يستغل هذا القول بنشر المادة المسكرة بين المسلمين وبعضهم يدافع عن الإمام لا عن القول (!!).

ولعل الكثيرين منكم يعلم أن "مجلة العربي" منذ بضع سنين نشرت مقالة لبعضهم يذهب ويتبنى هذا القول -أي: المشروبات المستنبطة من غير العنب- أباح للمسلمين أن يشربوا ما شاءوا من هذه المسكرات الحديثة؛ بحجة: لا تشرب ما يسكرك.

وهذه عملية خيالية؛ لأنه فِي الحقيقة -كما نعلم جميعًا- أن القطرة الأولى تجلب الثانية، والثالثة تجلب الرابعة، وهكذا.

والكمية القليلة الَّتِي لا تسكر -وهي عملية لا يمكن أن تحدد وتضبط-؛ فستأتِي بالكثير الذي يسكر.

---

(١) هو الإمام أبو حنيفة -رحِمه الله-.

(٢) "الإرواء" (٢٣٧٥).

(٣)"الإرواء" (٢٣٧٣).

فأقول: لماذا يبقى مثل هذا فِي كتب الفقه مع مصادمته للأحاديث القاطعة الدلالة، والثابتة عن الرسول ﷺ فِي إبطال مثل هذا القول؟!

لماذا نفسح المجال لكاتب مغرض؛ فينشر هذا القول، ويبني عليه علالِي وقصورًا، ويبيح للمسلمين شرب المشروبات المحرمة بقيد: لا تشرب مسكرًا، واشرب قليلاً، ولا تشرب كثيرًا؟!

قد يكون هذا الرجل الذي كتب هذا المقال مغرضًا، وقد يكون سليم النية، ويريد أن يسلك طريقة بعض الناس؛ يقول: يا جماعة! لا تشددوا على المسلمين؛ فما دام هناك قول إمام من أئمة المسلمين يبيح لَهم هذا الشرب؛ فلماذا نحرمه؟!

قد يكون هذا الكاتب كذلك، لكن ما بالنا نرى أحد علماء الشام الأفاضل[1] يؤلف رسالة[2] في الرد على هذه المقالة، فتراه فِي رده حيران؛ تارة ينتصر لمن قال بِهذا القول الذي تبناه الكاتب، وتارة يسوق الأحاديث -الَّتِي ذكرنا بعضها-؛ مِما هو رد على الكاتب وعلى من ركن إليه الكاتب.

لماذا نرى هذا العالم الفاضل مترددًا؟! لأنه يُقَدِّسُ هذا القول نظرًا لأنه صدر عن عالم من علماء المسلمين، وهذا العالم لا يتكلم بِهوى، أو جهل، وأنا أقول معه: لا يتكلم بِهوى أو جهل، ولكن هل هو معصوم في اجتهاده الذي ابتعد فيه عن الجهل والهوى؟!

كلنا يقول: لا.

وكلنا يذكر قول الرسول -عليه الصلاة والسلام-: «**إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ؛ فَلَهُ أجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَخْطَأَ؛ فَلَهُ أجْرٌ**»[3].

---

(١) هو الشيخ مُحمَّد الحامد الحموي (س. ه).

(٢) المسماة: "المشروبات المسكرة" (س. ه).

(٣) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

فلماذا ننسى أن المجتهد قد يؤجر أجرًا واحدًا، ولا نقول نحن: يخطئ؟! لأن بعض الناس يصعب عليهم أن يقول قائل: إن فلانًا الإمام أخطأ؛ لكن كل الدروب على الطاحون-؛ كما يقولون[١]-.

فنحن نقول: لما هذا التنطع؟! أو لماذا نجبن أن نقول: إن إمامًا من أئمة المسلمين أخطأ فِي مسألة، أو فِي اجتهاد، أو فِي رأي له؛ فيؤجر أجرًا واحدًا بدل أن يؤجر أجرين؟! لماذا لا نقول هذا، أولاً: كمبدأ، وثانيًا: كتطبيق لبعض الفروع؛ ومنها هذا الفرع الذي نحن فِي صدده؟!

وعندما تقرأ الرسالة الَّتِي ألفها هذا العالِم ردًّا على ذلك الكاتب؛ لا تخرج منها بنتيجة أن ذلك الكاتب أخطأ فِي اعتماده على رأي إمام من أئمة المسلمين؛ لأن هذا الرأي بعد تمحيصه وعرضه على أدلة الشريعة؛ اضطر بعض أتباع الإمام نفسه أن يُعْرِضَ عن هذه المسألة، ويدعها للإمام كأجر واحد، ويتمسك بالأحاديث الصحيحة ... فلماذا لَمْ نقرأ فِي تلك الرسالة أن الإمام قد أخطأ وهو مأجور، وأنه ليس لذلك الكاتب الاعتراض على السُّنَّة برأي هذا الإمام؟!

الجواب: لأنه قد ران على قلوبنا تقديس الأئمة، واحترامهم أكثر مِمَّا أوجب الله علينا.

ونَحن نؤمن بقول الرسول -عليه الصلاة والسلام- لنا: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَم صَغِيرَنَا، وَيَعْرِف لِعَالِمنَا حَقَّهُ**»[٢].

هذا مِمَّا حض عليه الرسول -عليه الصلاة والسلام- المسلمين أن يعرفوا حق العالم؛ ولكن هل من حق العالم أن نرفعه إِلَى مستوى النبوة والرسالة، حَتَّى نعطيه العصمة بلسان حالنا؟! فلسان الحال أنطق من لسان المقال.

---

(١) مثلٌ دارج فِي بلاد الشام -حرسها الله تعالى-.

(٢) "صحيح الجامع" (٥٤٤٣).

إذا كان علينا أن نحترم العالم ونقدره حق قدره، وأن نقلده حينما لا يبرز لنا الدليل؛ فليس لنا أن نرفع من قوله ونضع من قول الرسول -عليه الصلاة والسلام-، ولا أن نؤثر قوله على قول الرسول -عليه الصلاة والسلام-!.

هذا مثال آخر من الأمثلة الَّتِي لا تزال سارية بيننا دون إنكار أو اعتراض من أهل العلم بالكتاب والسنة.

قد ذكرت هذا فِي رسالة لي مطبوعة، وكان من المفروض أن يخرج القارئ منها بنتيجة واحدة؛ وهي: أن الأمر كما قال -عليه الصلاة والسلام- قولاً واحدًا: «**ما أسكرَ كثيره؛ فقليلهُ حرامٌ**»[1]، وذلك الكاتب في "مجلة العربي" مخطئ، ومن استند عليه من أهل العلم؛ فهو مخطئ، وليس عندنا محاباة لأحد إذا أخطأ؛ فالخطأ خطأ، والكفر كفر؛ سواء وقع من الصغير أو الكبير، الذكر أو الأنثى؛ فكله خطأ، فلا يختلف الخطأ بالنسبة إلى المصدر.

هناك مثال آخر في النكاح، ولا يزال حتى اليوم من المعمول به في القوانين الَّتِي تسمى: "الأحوال الشخصية".

من المعلوم اليوم أن القوانين فُرِضتْ علينا فرضًا، وفيها أشياء خلاف الشريعة اتفاقًا؛ لكن لا يزال هذا الحكم باقيًا على أنه رأي إسلامي محترم؛ فلا يزال يُقْضى بأن البنت المسلمة البالغة الراشدة لَها أن تزوج نفسها بنفسها دون إذن وليها؛ مع تصريح الرسول ﷺ بقوله: «**أيّما امرأة نكَحَت بغير إذن وليِّها فنكاحُها باطلٌ، فنكاحُها باطلٌ، فنكاحُها باطلٌ**»[2]؛ فهذا الحديث غير معمول به، وذاك القول معمول به ومقضي به!

وقد يقول بعض الناس: ألَم يفهم الحديثَ أحدٌ إلا أنت؟!

---

(١) "الإرواء" (٢٣٧٥).

(٢) "الإرواء" (١٨٤٠).

وأقول: هذا الحديث قد أخذ به أفْهَمُ الأئمة باللغة العربية وأساليبها؛ ألا وهو الإمام الشافعي، فليس هو رأيًا لإنسان يُعرف أصله أنه من ألبانيا؛ ولكن هذا الألباني وجد حديثًا، ووجد فهمًا لإمام وهو إمام قرشي مُطَّلِبي.

ثُم لماذا تُرك هذا الرأي الصحيح المقرون بِهذا الحديث الصحيح لرأي إمام آخر من أئمة المسلمين؟!

نعم؛ إن اجتهاد الإمام على رءوسنا؛ ولكن الاجتهاد له قيمة حينما لا يتعارض مع النص المعصوم من الكتاب والسنة.

فكلنا يقرأ فِي كتب الأصول قولُهم: "إذا ورد الأثر بطل النظر"، و"إذا جاء نَهر الله بطل نَهر معقل"، و"لا اجتهاد فِي مورد النص"، كل هذه القواعد معروفة علميًّا، فلماذا لا نَهتم بتطبيق هذه القواعد عمليًّا، ونظل نتمسك ببعض الفروع المخالفة للسنة؟!

فإذا أردنا أن نأخذ بالعلاج الذي وصفه الرسول ﷺ بعد أن وصف المرض: «**حتَّى ترجعوا إلَى دينكم**»؛ فهل الرجوع إلَى الدين هو فقط باللسان؛ أم هو بالاعتقاد والعمل؟!

إن كثيرًا من المسلمين يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن مُحمدًا رسول الله، وهم لا يلتزمون لوازم الشهادتين، وهذا بَحث طويل؛ فكثير من المسلمين اليوم -حتَّى الذين يعدون من المرشدين- لا يعطون "لا إله إلا الله" حقها فِي التفسير، ولقد انتبه لِهذا كثير من الشباب المسلم والكُتَّاب المسلمين؛ وهو أن من حق هذه الشهادة أن الحكم لله.

نعم؛ أريد أن أقولها صريحة: لقد انتبه الشباب المسلم والكتاب المسلمين اليوم إلَى هذه الحقيقة؛ وهي: أن الحكم لله ﷻ وحده، وأن تسليط القوانين الأرضية، واعتمادها لحل المشاكل القائمة اليوم؛ ينافي كون الحكم لله ﷻ، ولكنني أرى

كثيرًا من هؤلاء الكتَّاب لا ينسجمون مع هذا الانتباه الخطير الذي انتبهوا له؛ وهو كون الحكم لله ﷻ، وحكم الله هو حكم الكتاب والسنة.

تُرى: هل إذا جاء حكم مُخالف من فلان الكافر فهو مخالف لحكم الله، وإذا جاء من اجتهاد مجتهد لا يكون مخالفًا لحكم الله؟!

أنا أعتقد أنه لا فرق؛ إذ إنه يجب على المسلم ألاَّ يأخذ بأي قول مهما كان مصدره، ما دام أنه يخالف الكتاب والسنة؛ لكن هناك فرقًا بين ذاك الذي قال ذلك الكفر؛ فهو كافر مخلد فِي النار، وبين من قال ذلك خطأً من المسلمين؛ فهو مأجور على خطئه؛ كما سبق التنبيه عليه فِي الحديث الصحيح.

إذن يجب الرجوع إِلَى الدين بعد سلوك طريق فهم هذا الدين، وذلك يكون بتطبيق الفقه الذي يسمى اليوم بـــ" الفقه المقارَن"، أو "المقارِن"[١]، وهذا الفقه يجب أن يدرس، وأن يدرسه أهل الاختصاص من حملة الشهادات الشرعية الفقهية والحديثية.

ونَحن حينما ندعو لإقامة الدولة المسلمة، فلابد أن يكون لِهذه الدولة دستور واضح، وقانون أوضح؛ فعلى أي مذهب سيقام هذا الدستور؟! وعلى أي مذهب سيفسر هذا الدستور القانونِي؟!

هناك بعض الكتاب المسلمين[٢] اليوم يفصلون بعض الأحكام الَّتِي يجب أن يقوم عليها قانون الدولة المسلمة المنشودة، فنجد أن هذا القانون لَمْ يقم على الطريقة الَّتِي أشرنا إليها، وهي: "الفقه المقارن"، وعلى اصطلاحنا: "دراسة الكتاب والسنة"، وإنَّما الرجل درس مذهبًا؛ فنقل رأي هذا المذهب فِي كثير من الفروع

---

(١) وذلك عن طريق الترجيح بالدليل، أما ذكر أقوال العلماء وعزوها إِلَى مصادرها دون ترجيح؛ كمن اشتغل بالوسائل وترك الغايات، واغتر بالبدايات ونسي النهايات، والأعمال بالخواتيم (!) (س. ه).

(٢) هو الشيخ تقي الدين النبهانِي، مؤسس حزب التحرير؛ وهو حزب سياسي النَّزعة، معتزلي المعتقد. (س. ه).

الَّتِي قننها، ووضعها فِي الكتاب على أساس أن الدولة الإسلامية حينما تقوم -وعسى أن يكون ذلك قريبًا- يكون هذا هو قانونُها، فهو فِي الواقع لَمْ يأتِ بشيء جديد، كما أن مؤلف رسالة "المشروبات المسكرة" لَمْ يأت بشيء جديد، والشيء الجديد الذي نريده: هو أن ننبه المسلمين.

لكن أقل ما يقال: لقد صح القول الآخر الذي أخذ به الإمام الآخر؛ لأنه مؤيَّد بالسنة.

فهذا الذي أشير إليه جاء فِي مادة: إذا قتل المسلمُ الذِّميَّ قُتِلَ به، وهذا رأي معروف فِي الفقه الإسلامي؛ لكن هناك رأي آخر يقابله، وهو نقيضه: إذا قتل المسلمُ الذِّميَّ لا يُقْتَلُ به؛ لقوله -عليه الصلاة والسلام- فِي "صحيح البخاري": «**لاَ يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ**»[1].

فما الذي جعل هذا العالم الفاضل والكاتب المعاصر يضع فِي النظام الإسلامي والقانون الإسلامي: أن المسلم يُقتل بالكافر؛ على النقيض من حديث الرسول ﷺ؟!

أعتقد أن السبب: أنه درس هذا الفقه الذي نشأ عليه؛ فجعله لزامًا.

فهل هذا هو الرجوع إِلَى الدين؟!

إن الدين يقول: «لا يقتلُ مسلمٌ بكافرٍ»؛ لكن المذهب يقول: يقتل به!

وكذلك يقول الكاتب نفسه فِي الموضوع نفسه: إذا قتل مسلمٌ ذميًّا خطأً؛ فما ديته؟ ديته دية المسلم! هكذا يقول القانون تبعًا للمذهب الذي اعتمد عليه[2]، والرسول -عليه الصلاة والسلام- يقول: «**دِيَّةُ عقْلِ الكافِرِ نِصْفُ عَقْلِ الْمُؤمِنِ**»[3].

---

(١) "الإرواء" (٢٢٠٩).

(٢) وهو المذهب الحنفي (س. هـ).

(٣) "صحيح الجامع" (٣٣٩٧).

إذن؛ هل نجعل هذا قانونًا، أم ذلك القول المخالف له؟!.

وهناك أمثلة أخرى كثيرة جدًّا.

فالرجوع إِلَى الدين: هو الرجوع إِلَى الكتاب والسنة؛ لأن ذلك هو الدين باتفاق الأئمة، وهو العصمة من الانحراف والوقوع فِي الضلال، ولذلك قال -عليه الصلاة والسلام-: **«تَرَكْتُ فيكم شيئين لن تَضِلّوا بعدَهما: كِتابَ الله وَسُنَّتِي، ولن يتفرقا حَتَّى يردا عليّ الحوض»**[1].

وضربنا بعض الأمثلة الَّتِي توجب على أهل العلم اليوم أن يرجعوا إِلَى فهم الدين من أصليه المذكورين: الكتاب والسنة؛ لكيلا يقع المسلمون فِي استحلال ما حرم الله، متوهمين أنه مِمَّا أباحه الله.

والآن كلمتِي الأخيرة حول الرجوع إِلَى الدين:

إذا أردنا العزة من الله -تبارك وتعالى-، وأن يرفع عنا الذُّل، وينصرنا على العدو؛ فلا يكفي لذلك ما أشرنا إليه من وجوب تصحيح المفاهيم، ورفع الآراء الَّتِي أوَّلت الأدلة الشرعية عند أهل العلم وعند أهل الفقه الاختصاصي.

وإنَّما هناك شيء آخر مهم جدًّا -هو بيت القصيد- لتصحيح المفاهيم؛ ألا وهو العمل؛ لأن العلم وسيلة للعمل، فإذا تعلم الإنسان، وكان علمه صافيًا مصفى، ثُمَّ لَمْ يعمل به، كان بدهيًّا جدًّا هذا العلم لا يثمر؛ فلابد من أن يقترن مع هذا العلم العمل.

ويجب على أهل العلم: أن يَتَوَلّوا تربية النشء المسلم الجديد على ضوء ما ثبت فِي الكتاب والسنة، فلا يجوز أن ندع الناس على ما توارثوه من مفاهيم

---

(١) "صحيح الجامع" (٢٩٣٧).

قلت: وقوله ﷺ: «ولن يتفرقا حَتَّى يردا علي الحوض» ضعيف جدًّا؛ كما بينته فِي "مجمع البحرين فِي تخريج أحاديث الوحيين".

وأخطاء؛ بعضها باطل قطعًا باتفاق الأئمة، وبعضها مختلف فيه، وله وجه من النظر والاجتهاد والرأي، وبعض هذا الاجتهاد والرأي مخالف للسنة.

فبعد تصفية هذه الأمور، وإيضاح ما يجب الانطلاق والسير فيه؛ لابدَّ من تربية النشء الجديد على هذا العلم الصحيح.

وهذه التربية هي الَّتِي ستثمر لنا المجتمع الإسلامي الصافي، وبالتالي تقيم لنا دولة الإسلام.

وبدون هاتين المقدمتين: "العلم الصحيح"، و"التربية الصحيحة على هذا العلم الصحيح" يستحيل -فِي اعتقادي- أن تقوم قائمة الإسلام أو حكم الإسلام، أو دولة الإسلام.

وأضرب مثلاً لضرورة هذه التربية الصحيحة على العلم الصحيح: عندنا فِي الشام جماعة مسلمة[١]، تريد أن تعمل للإسلام، وتنهض به، وتربي النشء الجديد عليه، ولكن نشعر تمامًا بأن كثيرًا من الموجهين هناك هم بحاجة إلَى دراسة واسعة للإسلام؛ على هذا النهج السليم الصحيح الذي أشرنا إليه كما سبق من البيان.

فنرى كثيرًا من الشباب المسلم الناشئ يتداعون للاجتماع ليلة الجمعة؛ لإحيائها، وهذا تداع لطاعة الله ﷻ وعبادته، وهذا شيء جميل جدًّا، ولكن لأنَّهم لَمْ يدرسوا السُّنَّة، ولَمْ يتفقهوا فيها، ولَمْ يجدوا الجيل الذي يربيهم عليها منذ نعومة أظفارهم؛ يقعون فِي مخالفتها، ونشير بذلك إلَى قوله -عليه الصلاة والسلام-: **«لا تَخُصوا ليلَةَ الجُمُعَة بِقيامٍ من بينِ الليالي، ولا تَخُصوا يومَ الجُمُعَةِ بِصيام من بينِ الأيامِ»**[٢].

فكيف نحيي ليلة الجمعة والرسول -عليه الصلاة والسلام- نَهانا عن ذلك؟!

---

(١) هي جماعة الإخوان المسلمين (س. ه).

(٢) مسلم (١١٤٤/١٤٨).

الجواب: لأنه لا علم عندنا.

لكن المفروض أن يأتِي التوجيه من أهل العلم: أن هذه الليلة لا يجوز إحياؤها؛ لقوله -عليه الصلاة والسلام- الآنف الذكر.

وتجد آخرين من هؤلاء الشباب الطيب يستحلون الاستماع للأغانِي وآلات الطرب[١]! وذلك لأنَّهم يجدون الإذاعات تملأ الأسماع، ولا يوجد هناك توجيه عام لِهذا النشء المسلم الجديد بأن الرسول ﷺ قد نَهى عن آلات المعازف، وحذر من الاستماع إليها، وهدد الذين يُمسون فِي لهو ولعب ويستمعون إلَى المعازف أن يُمسَخوا قردة وخنازير[٢].

لَمْ يُربَّ هذا النشء الجديد على معرفة ما يجوز وما لا يجوز؛ وذلك لأنه يجد أقوالاً كثيرة؛ يجد مثلاً ابن حزم -الإمام- له رسالة فِي إباحة الملاهي[٣]، وسرعان ما تطبع هذه الرسالة، وتنتشر بين الناس؛ فتوافق منهم هوى.

وربَّما قال بعض الموجهين وبعض من يدعي الإصلاح: ما دام هذا إمامًا وله مثل هذا الرأي؛ إذن نَحن نتبعه، أو نقلده فِي سماعنا للطرب؛ لاسيما وقد أصبحت بلوى عامة[٤]!

---

(١) بل بعضهم كون فرقًا موسيقية! وسماها بأسماء إسلامية كـ"فرقة أبِي ذر" و"بدر" و"الترمذي" ... إلخ!! (س. هـ).

(٢) "الصحيحة" (٩١).

(٣) وقد رد عليها شيخنا -رحِمه الله- فِي كتاب مستقل، هو: "تحريم آلات الطرب" (س. هـ).

(٤) كأمثال الدكتور يوسف بن عبد الله القرضاوي، المصري، ثُمَّ القطري، الذي ملأ كتبه وفتاويه بإباحة ذلك، بل يتبجح على أثير القنوات الفضائية، وصفحات الجرائد والمجلات بالدعوة إليه والتحريض عليه، ودونك التفصيل:

١- إباحة الغناء والموسيقى:

بحثه فِي كتابه "الحلال والحرام فِي الإسلام" (ص٢١٨-٣٢١) وقال: "ومن الهوى الذي =

=

تستريح إليه النفوس وتطرب له القلوب وتنعم به الآذان: الغناء، وقد أباحه الإسلام ما لَمْ يشتمل على فحش أو خنا أو تحريض على إثم. ولا بأس أن تصحبه الموسيقى غير المثيرة، وأستحبه فِي المناسبات السارة إشارة للسرور وترويحًا للنفوس، وذلك كأيام العيد والعرس وقدوم الغائب وفِي وقت الوليمة والعقيقة وعند ولادة المولود".

وقال -أيضًا- كما فِي مجلة "سيدتِي" عدد (٦٧٨): "إن الغناء فِي حد ذاته ليس حرامًا، سواء كان غناء بآلة أو بغير آله؛ أي: مع الموسيقى أو بدون الموسيقى".

ويستمع -أيضًا- للمطربين والمطربات، ويتأثر بشدة بصوت فايزة أحمد:

أجرت مجلة "الراية" حوارًا معه فِي عددها (٥٩٧٠) بتاريخ (جمادى الأولى ١٤١٩هـ)... قال محاوره: وتناهى إلى سمعي صوت غناء قادم من داخل منْزل الشيخ القرضاوي؛ فضحكت وأنا **أقول: لمن يستمع الدكتور القرضاوي؟**

فأجاب القرضاوي: الحقيقة أنا مشغول عن سماع الغناء، لكنِي أستمع إلى عبد الوهاب وهو يغني (البلبل)، أو (يا سماء الشرق جودي بالضياء)، أو (أخي جاوز الظالمون المدى). وأستمع أحيانًا إلى أم كلثوم فِي (نَهج البردة)، أو (سلوا قلبِي غداة سلا وتابا)، وأستمع بحب وأتأثر بشدة بصوت فايزة أحمد خاصة وهي تغني الأغنيات الخاصة بالأسرة (ست الحبايب)، و(يا حبيبِي يا خويا) و(يا بو عيالي)، و(بيت العز يا بتنا على بابك عنبتنا) وهذه أغنيات لطيفة جدًّا... إلى أن قال: صوت فايزة أحمد وهي تغني (ست الحبايب) ليس فيه إثارة، وصوت شادية وهي تغني (يا دبلة الخطوبة عقبالنا كلنا)، (يا معجبانِي يا غالي) فهذه أغنيات نسمعها في الأفراح والأعراس.

-أيضًا- فيروز أحب سماعها في أغنية (القدس) وأغنية (مكة) لكن لا أتابعها في الأغنيات العاطفية؛ ليس لأنَّها حرام، وإنَّما؛ لأنَّنِي مشغول.

والحقيقة: أنا لا أستطيع سماع أغنية عاطفية كاملة لأم كلثوم لأنَّها طويلة جدًّا، وتحتاج إلى من يتفرغ لَها -وابتسم الشيخ وهو يقول-: ولا تسألنِي لمن أستمع من الجيل الحديث؛ لأننِي من الجيل القديم، وأرى أن الجيل الماضي من المطربين والمطربات أقرب إلى نفسي من الجيل الجديد".

٢- ويُمارس -أيضًا- الهوايات الأوروبية:

فهو يمشي على الكورنيش، ويتابع المسلسلات التلفازية، فيضحكه عادل إمام، وغوار الطوشة

=

... كما في مجلة "الراية" (٥٩٧٠) (٢٠ جمادى الأولى ١٤١٩هـ).

٣- ويبيح الجلوس على مائدة يُدار عليها الخمر:

فقد ذكرت مجلة "المجتمع" (١٢٦١) الصادرة في (غرة ربيع الآخر ١٤١٨هـ-١٩٩٧/٨/٥م) أن اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا نظم يوم (١٩٩٧/٧/١٩م) ندوة فقهية بمقر الاتحاد بباريس بحضور د-يوسف القرضاوي ود- عصام البشير وغيرهما، وفيها قال الصحفي الكاتب عن القرضاوي: "أما عن بيع المحرمات، فقد أجاز ذلك في حدود الاضطرار القصوى في حكم القانون القائم ... ثم أجاب عن سؤال مطروح بحدَّة على كثير من المسلمين في الغرب خاصة على رؤساء الجمعيات والمسئولين الذين يُدعون لحضور بعض المناسبات التي توزع فيها الخمور، فيضطر المرء إلى الجلوس في طاولة يشرب بعض جالسيها الخمر وتقتضي مصلحة الدعوة الإسلامية ألاَّ يتغيب عن حضور هذه الدعوات، حتى لا يظهر المسلمون بمظهر العزلة عن المجتمع، ويرى القرضاوي أن الأصل في الأشياء أن يُحترم الداعي إلَى مثل هذه المناسبات خصوصية المسلمين فيجنبوهم كل المحرمات المعروفة في دينهم لكن إن تعسر ذلك؛ فإن الحاجة تبيح مثل هذه المحرمات".

٤- ويجيز لمس المرأة الأجنبية:

فيقول- وبعد لف ودوران- كما في "فتاوى معاصرة" (٣٠١/٢): "والذي يطمئن إليه القلب من هذه الروايات أن مجرد الملامسة ليس حرامًا".

٥- ويجيز للمرأة التمثيل:

فيقول كما في مجلة "المجتمع" (١٣١٩): "ولاشتراك المرأة في التمثيل عدد من الضوابط، أهمها:

- أن يكون اشتراكها ضروريًّا.
- أن تظهر بلباس الإسلام ولا تضع المساحيق.
- أن يراعي المخرج والمصور عدم إبراز مفاتنها والتركيز عليها في التصوير.
- أن تتفوه بالكلام الحسن وتبعد عن الفاحش.

لقد أحل القرضاوي كل ما يتعلق بالسينما والمسرح والتلفاز والتمثيل، و لم يكتف بنشر هذه السموم في كتبه الضالة، بل صنف لأتباعه كتابًا سماه "الإسلام والفن" سطر فيه كل ما يريده أهل الشهوات ... -عياذًا بالله- ... إنَّها التربية الإخوانية التي جعلت من هذه الجماعة مزمارًا ودفًا، ورقصًا وكفًا.

=

فأين السنة حينئذ؟ إن السنة أصبحت نسيًا منسيًّا!

وإذا كان الرسول -عليه الصلاة والسلام- جعل العلاج فِي رفع الذُّلِّ المخيِّم علينا إنَّما هو الرجوع إلَى الدِّين؛ فيجب علينا إذن أن نفهم الدين بواسطة أهل العلم فهمًا صحيحًا موافقًا للكتاب والسنة، وأن نربِي النشء الجديد الصالح الطيب على ذلك، وهذا هو الطريق لمعالجة المشكلة الَّتِي يشكو منها كل مسلم.

وقد أعجبتنِي كلمة لبعض المصلحين(١) **فِي العصر الحاضر يقول:** "أقيموا دولة الإسلام فِي قلوبكم؛ تقم لكم على أرضكم"(٢).

=

وهو يسير وراء شيخه محمد الغزالي السقا!!

وانظر لبيان أباطيل القرضاوي: "تحريم آلات الطرب" لشيخنا الألباني -رحمه الله- و"الإعلام بنقد كتاب الحلال والحرام" للدكتور صالح الفوزان، و"الحق الدامغ للدعاوي في دحض مزاعم القرضاوي" لعبد الكريم بن صالح الحميد، و"رفع اللثام عن مخالفة القرضاوي لشريعة الإسلام" لأحمد بن محمد العديني، و"القرضاوي في الميزان" لسليمان الحراشي (س. هـ).

(١) هو حسن الهضيبِي المرشد العام الثانِي لجماعة الإخوان المسلمين.

وشيخنا -رحمه الله- يدندن حول هذه الكلمة كثيرًا وليس ذلك ترويجًا لفكر قائلها أو منهج جماعته.

كلا؛ فإن شيخنا -رحمه الله- من أوائل أهل العلم الذين بينوا انحراف جماعة الإخوان المسلمين فِي العقيدة والدعوة والمنهج. انظر -غير مأمور-: (ص٩١) من هذا الكتاب.

وقِفْ على أباطيلهم وكشف أحابيلهم فِي كتابِي "الجماعات الإسلامية فِي ضوء الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة" (س. هـ).

(٢) أوقفنِي بعض أصحابِي من طلاب العلم على كتاب عنوانه: "الجهاد والاجتهاد: تأملات فِي المنهج" للمدعو عمر بن محمود أبي عمرو (*) خبط فيه خبط عشواء، فكان كحاطب ليل، =

....

(*) وهو المكنى بأبِي قتادة الفلسطينِي، المقيم -اختيارًا- فِي بلاد الكفر والإباحية (لندن!) الْمُروِّج لمنهج (الخوارج) وفكرهم!!

وقد رد على أفكاره المضللة وبيَّن أحواله السيئة: الأخ الفاضل عبد المالك رمضاني الجزائري فِي كتابه النافع: "تخليص العباد من وحشية أبِي قتاد الداعي إلى قتل النسوان وفلذات الأكباد" فانظره غير مأمور.

=

حيث زعم أن هذه الكلمة صوفية المنهج؛ فقال (ص٢١٨): "... وإن كثيرًا من الفضلاء تأثروا بالمنهج الصوفي فِي التغيير والحركة، ولعل أوضح عبارة أطلقت فِي هذا الزمان عبرت عن هذا المنهج الصوفي هي الكلمة الَّتِي صارت شعارًا لبعض التجمعات والتنظيمات الإسلامية، هذه العبارة هي: "أقيموا دولة الإسلام فِي قلوبكم؛ تقم لكم على أرضكم".

وكذلك مثل هذه الدعوة أصحاب دعوة: "التصفية والتربية" بالمفهوم التربوي الذي يطرحه أتباع هذه الشعارات ... فإننا نستطيع بكل جرأة أن نسمي أصحاب هذا الشعار (أقيموا ... تقم...)، وهم أصحاب التغيير عن طريق "التصفية والتربية" أنَّهم "سلفية العقيدة، صوفية المنهج".

ثُمَّ بدأ (ص٢١٩) يحلل هذه العبارة من خلال تصوراته النفسية، وأنَّها ترتبط بعقيدة الجبر والإرجاء، حيث صرح (ص٢٢٠)؛ فقال: "فالعبارة كما هي عند أصحابِها: أقيموا دولة الإسلام فِي قلوبكم "إرجاء بدعي" تقم لكم على أرضكم "جبر بدعي".

ولست -الآن- فِي صدد بيان جهله وتمويهه وتدليسه وتشبعه بِما لَمْ يعط .. إلَى آخر أثواب الزور والغرور، الَّتِي يتدثر بِها؛ لكن رب كاسية عارية، ولكن أنبه على أمور:

١- عبارة: "أقيموا دولة الإسلام فِي قلوبكم، تقم لكم على أرضكم" لا يمكن أن يفهم منها ما ادعاه الكاتب المشار إليه للوجوه الآتية:

أ- أن قائلها الهضيبِي لَمْ يكن منهجه فِي التغيير صوفيًّا، بل يعلم الكاتب قبل غيره أنه معتزلي خارجي، ورحم الله الشيخ أبا الأشبال أحمد شاكر -رحِمه الله- حيث قال: "الإخوان المسلمون خوارج القرن العشرين".

وتاريخ هذه الجماعة مليء بالمآسي السياسية؛ لاصطدامهم الدائم مع ذوي السلطان، حيث ينازعون الأمر أهله بأدنى شبهة؛ فحالهم فِي مصر، وسوريا، والعراق، والجزائر ... لا يخفى على بصير بالساحة الدعوية.

ب- ناقلها وهو شيخنا -رحِمه الله- كان شوكة فِي حلق الصوفية فِي بلاد الشام بل العالم حَتَّى مَماته -رحِمه الله-.

=

=

٢- أن عبارة: "أقيموا دولة الإسلام فِي قلوبكم؛ تقم لكم على أرضكم" استخدمها ناقلها -رحمه الله- حجة على أصحاب قائلها، من باب: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف:٢٦]. كما يظهر من كلامه الآتي (ص٩١).

٣- أن العبارة يدل عليها قول الله -تعالى-: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

فهذه الآية الشريفة هي منهج الإسلام فِي التغيير، ومنها أخذ المنهج السلفي معالمه فِي التغيير، ودونك البيان:

أ- ذكر الله -سبحانه- التغيير مرتين: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

ب- فِي المرة الأولى أسند التغيير إلَى نفسه الكريمة، وفِي المرة الأخيرة أسند التغيير إلَى عباده.

ت- التغيير المسند إلَى الله ﷻ هو تغيير ما وقع على العباد وما هم فيه من ذُلٍّ وصَغَارٍ، وهوان وضعف، والتغيير المسند إلَى العباد هو تغيير ما فِي نفوسهم من ضعف وعصيان وفساد.

ث- تغيير ما فِي نفوس العباد شرط فِي تغيير ما وقع على العباد.

ج- لو فهمت هذه الآية كما فهم هذا الكاتب هذه العبارة؛ لكانت المعادلة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ (جبر) ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (إرجاء).

وهذا الفهم انتكاس وخبط وخلط.

٤- هذه العبارة تدل على أمور:

أ- أن الإسلام لابد أن يتشكل فِي دولة؛ فهل المنهج الصوفي يدعو إلَى دولة إسلامية وتطبيق حكم الله فِي الأرض، وإقامة خلافة راشدة على منهاج النبوة، واستئناف حياة إسلامية؟!

ب- أن دولة الإسلام لابد أن تتمكن من قلوب الدعاة لَها حَتَّى يستطيعوا إقامتها فِي واقعهم وعلى أرضهم.

ت- أن الذي لا يستطيع تطبيق حكم الله وإقامة منهجه فِي نفسه لا يمكن أن يطبق ذلك على واقعه، ففاقد الشيء لا يعطيه، وإن ادعى ما ليس عنده، وتشبع بما ليس فيه (!).

ث- أن أعمال الجوارح يقتضيها إيْمان القلوب، فمن تمكن الإيْمان الصحيح فِي قلبه؛ استلزم وجود أعمال الجوارح؛ وإلا دلَّ على عدمه أو ضعفه.

=

ولابد من أن نصلح نفوسنا على أساس من إسلامنا وديننا، وهذا -كما ذكرنا- لا يكون بالجهل، وإنَّما بالعلم؛ حَتَّى تقوم دولة الإسلام على أرضنا هذه[1].

=

٥- إذا فهمنا العبارة فِي ضوء الآية كانت النتيجة "التصفية والتربية" بالمفهوم السلفي المنهجي الذي بسطه شيخنا -رحمه الله-.

(١) "التصفية والتربية، وحاجة المسلمين إليها".

وهي محاضرة من أوائل مجالس شيخنا -رحمه الله- العلمية الَّتِي حضرتُها، وكان قد ألقاها فِي "المعهد الشرعي" فِي (جبل اللويبدة) فِي (عمان البلقاء) عاصمة (جند الأردن) من (بلاد الشام المحروسة) سنة (١٣٩٣هـ).

وقد أشار إليها -رحمه الله- فِي "الضعيفة" (٢/المقدمة)، فقال: "هذا وإنِّي لأرجو بواسطة هذه السلسلة وأختها الأخرى: "الأحاديث الصحيحة" أن أكون من المشاركين فِي القيام بواجب "التصفية والتربية" الَّتِي كنت تحدثت عنها فِي محاضرة كنت ألقيتها فِي (المعهد الشرعي) فِي (عمان)، سنة (١٣٩٣ هـ)، كان موضوعها: "التصفية والتربية"، وأردت بالأول منهما أمورًا:

الأول: تصفية العقيدة الإسلامية مِمَّا هو غريب عنها؛ كالشرك، وجحد الصفات الإلهية وتأويلها، ورد الأحاديث الصحيحة؛ لتعلقها بالعقيدة ونحوها.

الثاني: تصفية الفقه الإسلامي من الاجتهادات الخاطئة المخالفة للكتاب والسنة، وضربت على ذلك بعض الأمثلة.

الثالث: تصفية كتب التفسير، والفقه، والرقائق، وغيرها من الأحاديث الضعيفة، والموضوعة، والإسرائيليات المنكرة، وهذا ما أقوم به فِي هذه السلسلة، ونحوها، مثل: "ضعيف أبِي داود"، و"ضعيف الجامع الصغير"، و"ضعيف الترغيب والترهيب".

وأما الواجب الآخر؛ فأريد به تربية الجيل الناشئ على هذا الإسلام المصفى من كل ما ذكرنا، تربية إسلامية صحيحة منذ نعومة أظفاره، دون أي تأثير بالتربية الغربية الكافرة.

ومِمَّا لا ريب فيه أن تحقيق هذين الواجبين يتطلب جهودًا جبارة متعاونة من الجماعات

=

الطريق الرشيد إلَى بناء الكيان الإسلامي المنشود

وقد بيَّن -رحِمه الله- الطريق الرشيد نحو بناء الكيان الإسلامي؛ فقال -رحِمه الله-: "إن وضع المسلمين اليوم من حيث إنَّهم محاطون بدول كافرة قوية فِي مادتِها، ومبتلون بحكام كثير منهم لا يحكم بِما أنزل الله، أو لا يحكمون بِما أنزل الله إلا فِي بعض النواحي دون بعض، مِمَّا لا يساعدهم على أن يعملوا عملاً جماعيًّا وسياسيًّا لو كان ذلك طوقهم.

فإنِّي أرى: أن العمل الذي ينبغي على الجماعات الإسلامية أن يتوجهوا إليه بكليتهم؛ ينحصر فِي نقطتين اثنتين وضروريتين، ولا أعتقد أن هناك مجالاً للخلاص

=

الإسلامية المخلصة، الَّتِي يهمها -حقًّا- إقامة المجتمع الإسلامي المنشود؛ كلٌّ فِي مجاله واختصاصه.

وأما بقاؤنا راضين عن أوضاعنا، متفاخرين بكثرة عددنا، متواكلين على فضل ربنا، أو خروج المهدي ونزول عيسى، صائحين: بأن الإسلام دستورنا، جازمين بأننا سنقيم دولتنا؛ فذلك محال، بل وضلال؛ لمخالفته لسنة الله الكونية والشرعية معًا، قال -تعالى-: **﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾** [الرعد:١١]. وقال ﷺ: **«إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد؛ سلط الله عليكم ذلاًّ، لا ينْزعه عنكم، حَتَّى ترجعوا إلَى دينكم»**.

من أجل ذلك قال أحد الدعاة الإسلاميين اليوم: "أقيموا دولة الإسلام فِي قلوبكم؛ تقم لكم فِي أرضكم" وهذا كلام جميل جدًّا، ولكن أجمل منه العمل به: **﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** [التوبة:١٠٥].

من هذا الضعف والهوان، والذل الذي عليه المسلمون.

أقول ما أقول وأخص به المسلمين الثقات المتمثلين فِي الشباب الواعي الذي عرف -أولاً- مأساة المسلمين، واهتم -ثانيًا- بالبحث الصادق عن الخلاص، وبكل ما أوتيه من قوة؛ بينما الملايين من المسلمين مسلمون بحكم الواقع الجعرافي، أو تذكرة النفوس[1]؛ فهؤلاء لا أعنيهم بالحديث.

أعود؛ فأقول: إن الخلاص على أيدي هؤلاء الشباب يتمثل فِي أمرين لا ثالث لَهما: "التصفية والتربية"؛ وأعنِي بالتصفية: تقديْم الإسلام إلَى الشباب المسلم مصفى من كل ما دخل فيه على مدى هذه القرون والسنين الطوال من العقائد، ومن الخرافات، والبدع، والضلالات، **ومن ذلك**: ما دخل فيه من أحاديث غير صحيحة قد تكون موضوعة، فلابد من تحقيق هذه "التصفية"؛ لأنه بغيرها لا مجال أبدًا لتحقيق أمنية هؤلاء المسلمين الذين نعدهم من المصطفين المختارين من العالم الإسلامي الواسع.

فالتصفية هذه إنَّما يراد بِها تقديم العلاج -الذي هو الإسلام- الذي عالج ما يشبه هذه المشكلة حينما كان العرب أذلاَّء، وكانوا يستعبدون من الأقوياء ممن حولهم من فارس والروم والحبشة ونحو ذلك من جهة، وكانوا يعبدون غير الله -تبارك وتعالى- من جهة أخرى.

فهذا الإسلام: كان هو العلاج الوحيد لإنقاذ العرب مِمَّا كانوا فيه من ذلك الوضع السيئ، والتاريخ -كما يقال- يعيد نفسه، والعلاج إذا كان هو العلاج السابق نفسه؛ فسيقضي حتمًا -إذا استعمله المريض- على مرضه الذي هو عين المرض السابق.

الإسلام هو العلاج الوحيد، وهذه كلمة لا اختلاف فيها بين الجماعات الإسلامية أبدًا.

---

(١) المراد: "الجنسية"، أو: "شهادة الميلاد".

وذلك من فضل الله على المسلمين؛ ولكن هناك اختلافًا كبيرًا بين الجماعات الإسلامية الموجودة اليوم على الساحة: ساحة الإصلاح، ومُحاولة إعادة الحياة الإسلامية، واستئناف الحياة الإسلامية، وإقامة الدولة الإسلامية.

هذه الجماعات مختلفة أشد الاختلاف حول نقطة البدء بالإصلاح؛ فنحن نخالف كل الجماعات الإسلامية فِي هذه النقطة، ونرى أنه لابد من البدء بالتصفية والتربية معًا، أما أن نبدأ بالأمور السياسية، والذين يشتغلون بالسياسة قد تكون عقائدهم خرابًا يبابًا، وقد يكون سلوكهم من الناحية الإسلامية بعيدًا عن الشريعة[١]؛ والذين يشتغلون بتكتيل الناس وتجميعهم على كلمة "إسلام" عامة؛ ليس لَهم مفاهيم واضحة فِي أذهان هؤلاء المتكتلين حول أولئك الدعاة[٢]، ومن ثُمَّ ليس لِهذا الإسلام أي أثر فِي منطلقهم فِي حياتِهم؛ ولِهذا تجد كثيرًا من هؤلاء وهؤلاء لا يحققون الإسلام فِي ذوات أنفسهم فيما يمكنهم أن يطبقوه بكل سهولة، بحيث لا أحد -مهما كان متكبرًا جبارًا- يدخل بينه وبين نفسه.

وفِي الوقت نفسه يرفع هؤلاء أصواتَهم: بأنه لا حكم إلا لله، ولابد أن يكون الحكم بِما أنزل الله[٣]، وهذه كلمة حق؛ ولكن فاقد الشيء لا يعطيه، وإذا كان أكثر المسلمين اليوم لا يقيمون حكم الله فِي أنفسهم، ويطالبون غيرهم بأن يقيموا حكم الله فِي دولتهم؛ فإنَّهم لن يستطيعوا تحقيق ذلك؛ ففاقد الشيء لا يعطيه؛ لأن هؤلاء الحكام هم من هذه الأمة، وعلى الحكام والمحكومين أن يعرفوا سبب هذا الضعف الذي يعيشونه.

يجب أن يعرفوا: لماذا لا يحكم حكام المسلمين اليوم بالإسلام إلا فِي بعض

(١) كـ"الإخوان المسلمون"، و"حزب التحرير" (س. ه).
(٢) كـ"الإخوان المسلمون"، و"دعوة التبليغ" (س. ه).
(٣) كـ"حزب التحرير" (س. ه).

النواحي؟ ولماذا لا يطبق هؤلاء الدعاة الإسلام على أنفسهم، قبل أن يطالبوا غيرهم بتطبيقه فِي دولِهم؟!

الجواب واحد: وهو إما أنَّهم لا يعرفون الإسلام، ولا يفهمونه إلا إجمالاً، وإما أنَّهم لَمْ يربوا على هذا الإسلام فِي منطلقهم، وفِي حياتهم، وفِي أخلاقهم، وفِي تعاملهم مع بعضهم ومع غيرهم.

والغالب كما نعلمه بالتجربة: أنَّهم يعيشون فِي العلة الأولى الكبرى، وهي بُعْدهم عن فهم الإسلام فهمًا صحيحًا، كيف لا وفِي الدعاة من يَعُدُّ السلفيين بأنَّهم يضيعون عمرهم فِي التوحيد!! ويا سبحان الله! ما أشد إغراق من يقول مثل هذا الكلام فِي الجهل؛ لأنه يتغافل إن لَمْ يكن غافلاً حقًّا عن أن دعوة الأنبياء والرسل الكرام كانت ﴿**أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل:٣٦]، بل إن نوحًا -عليه الصلاة والسلام- أقام ألف سنة إلا خمسين عامًا لا يُشَرِّع، ولا يقيم سياسة، بل؛ يا قوم اعبدوا الله، واجتنبوا الطاغوت!.

هل هناك تشريع؟! هل هناك سياسة؟! لا شيء؛ تعالوا يا قوم اعبدوا الله، واجتنبوا الطاغوت، فهذا أول رسول -بنص الحديث الصحيح-، أرسل إلَى الأرض، واستمر فِي الدعوة ألف سنة إلا خمسين لا يدعو إلا إلَى التوحيد، وهو شغل السلفيين الشاغل، فكيف يُسَفِّه كثير من الدعاة الإسلاميين، ويَنْحَطُّون إلَى درجة أن ينكروا ذلك على السلفيين؟!

إن من فضائل السنة: أنَّها توضح مشاكل قد تعترض الأمة، فيضع لَها العلاج مسبقًا بعد أن ينبههم على مرضهم وعلتهم، وكلنا يعلم قول الرسول ﷺ: «**ستتداعى عليكم الأمم، كما تداعى الأكلة على قصعتها.** قالوا: أَوَمِنْ قلة نَحن يومئذ يا رسول الله؟! قال: **لا، بل أنتم يومئذٍ كثير؛ ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل، ولينْزعن الله المهابة من صدور عدوكم، وليقذفن فِي قلوبكم الوهنَ،** قالوا: يا رسول الله! وما

الوهن؟ قال: **حب الدنيا، وكراهية الموت**»[١].

ففي هذا الحديث بيان مرض من الأمراض الَّتِي ستصيب المسلمين، فيكون ذلك سببًا أو سنة كونية شرعية فِي آن واحد: أن يتسلط على المسلمين الأعداء، وأن يهجموا من كل صوب؛ كما تتداعى الأكلة على قصعتها.

أقول: فِي هذا الحديث بيان مرض من الأمراض الَّتِي تؤدي بالمسلمين إلَى هذا الوضع المشين ألا وهو: «**حب الدنيا، وكراهية الموت**»، وهذا له علاقة بـــ"التصفية والتربية".

والشطر الثانِي من هذه الكلمة يعنِي: أنه لابد من تربية المسلمين تربية على أساس ألاَّ يفتنوا -كما فتن الذين من قبلهم بالدنيا- حيث يقول الرسول ﷺ: «**ما الفقر أخشى عليكم؛ ولكن أخشى عليكم أن تُفتح عليكم زَهْرَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْ الذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**»[٢]، ولِهذا نرى أنه قلَّ من ينتبه لِهذا المرض، فيربِي الشباب، لاسيما الشباب الذين فتح الله عليهم كنوز الأرض، وأغرقهم فِي خيراته -تبارك وتعالَى-، وفِي بركات الأرض، قَلَّما ينبه إلَى هذا، فهذا مرض يجب على المسلمين أن يتحصنوا منه، وألاَّ يصل إلَى قلوبِهم: «حب الدنيا وكراهة الموت» إذن، فهذا مرض لابد من معالجته، وتربية الناس على أن يتخلصوا منه[٣].

---

(١) مضى تخريجه (ص٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١).

(٣) انظر -لزامًا- ما تقدم من كلام الإمام ابن قيم الجوزية، وتأمل الأمثلة التربوية فِي بيان خطر حب الدنيا؛ تعلم كيف كان علماء السلف يربون الأمة على إيثار الآخرة على الدنيا، ثُمَّ قارن بِما قاله شيخنا -رحِمه الله- تجده طريقًا واحدًا ومنهجًا مضطردًا حَتَّى يقاتل آخرهم الدجال.
وهكذا تُوحِّد السُّنَّة السلفيين على اختلاف ديارهم وأعصارهم، وأما غيرهم؛ فكل حزب بِما لديهم فرحون (!).

ونعود إلَى الشق الأول، وهو الأهم بلا شك؛ وهو قولنا: إنه لابد أن يكون البدء بالتصفية مقرونة بالتربية.

وهناك حديث للرسول ﷺ يشير فيه إلَى هذه التصفية؛ وهو قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**إذا تَبَايَعتُم بالعينَة، وَأَخَذْتُم أَذْنَابَ البَقَرِ، وَرَضِيتُم بِالزَّرْعِ، وتَركتُمْ الجِهَادَ؛ سَلَّطَ الله عَلَيْكُمْ ذُلاًّ، لا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إلَى دِينِكُمْ**»[1].

فِي هذا الحديث وصف الداء والدواء؛ إنه يقول فِي أول الحديث: «**إذا تبايعتم بالعينة**».

والعينة: بيع من البيوع الربوية، وهي مع الأسف قائمة اليوم فِي بعض البلاد الإسلامية؛ بل العربية، وهي البلدان الَّتِي يُفترض فيها أن تفهم كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ خيرًا مِمَّا يفهمه الأعاجم المسلمون.

«**العينة**»: أن يشتري الشاري حاجة من التاجر بثمن أكثر من ثمن النقد، يشتري به إلَى أجل أو ما يسمونه اليوم بـ"التقسيط" بثمن أكثر من ثمن النقد، والحقيقة أن فاعله ما جاء ليشتري، وإنَّما جاء ليأخذ الدراهم أو الدنانير؛ ليشتغل بِها، ولتكون نواة لعمل له.

ونظرًا لفساد المجتمع، وانفكاك الرباط الدينِي الذي يربطهم بالإسلام لو كانوا به عاملين؛ يضطر المحتاج إلَى أن يضمن لنفسه ما لا يعمل به عن طريق الاحتيال على ما حرم الله.

هذا هو بيع العينة، وهذا أمر واقع اليوم فِي بعض البلاد وبالإضافة إلَى ذلك: «**أخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع**». وهذا من التكالب على الدنيا، وأدى ذلك إلَى ترك الجهاد فِي سبيل الله... ماذا تكون عاقبة هؤلاء المسلمين الذين يحتالون على أحكام الله، ويستحلون حرمات الله بأدنى الحيل، ثُمَّ يعرضون عن

(١) "الصحيحة" (١١).

القيام بواجبهم؛ كالجهاد فِي سبيل الله؟ وما مصيرهم؟

العاقبة والمصير: أن يسلط الله عليهم ذلاًّ، لا ينْزعه منهم حَتَّى يرجعوا إِلَى دينهم.

إذن؛ فإن الأمراض الَّتِي يُبتلى بِها المسلمون تتلخص فِي ناحيتين:

الأولَى: معلوم من الدين بالضرورة؛ كالجهاد فِي سبيل الله بسبب تكالبهم على الدنيا.

الثانية: الاحتيال على ما هو معلوم تحريمه من السنة؛ كبيع العينة، والأمثلة كثيرة جدًّا.

فقوله ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعينة**». ذكره كمثال لما قد يقع فيه المسلمون من استحلال ما حرم الله والاحتيال عليه، وليس هكذا صراحة، كما يستحل المسلمون اليوم الربا، ويحتال له بعض المسلمين؛ فتكون مصيبتهم مصيبتين:

أولاً: ارتكاب المحرم.

وثانيًا: اللف والدوران حول استحلاله.

وقد ذكرت منذ زمن قريب: أن هناك من أَلَّف رسالة ذكر فيها متفاخرًا بأن الحيلة فِي ألاَّ يقع المسلم فِي الربا أن ينذر لله أنه كلما استقرض من إنسان مالاً أن يعطيه عشرًا فِي المائة شكرًا لله، فإن نوى هذا فِي نفسه أصبح هذا قدرًا واجب الوفاء!!

نعم؛ إِلَى هذا الحد وصل الأمر ببعض المشايخ أن يلفوا ويدوروا حول أحكام الإسلام، واستحلال ما حرم الله ... وهذا هو سبيل اليهود لا غير فِي التعامل الربوي، وهو سبيل خطير الآثار؛ لهذا حذر الرسول -عليه الصلاة والسلام- من يفعل ذلك أن يسلط الله عليه ذلاًّ، لا ينْزعه عنه حَتَّى يرجع إِلَى دينه، والرجوع إِلَى الدين قضية العصر، وهو قضية كبرى، ولابد من شيء من التفصيل فيها ...

ذلك أن بعض الكتاب والدعاة يرون -مع الأسف الشديد- أن الدين ذو مفاهيم عدة مختلفة والاختلاف فيها اختلاف فِي الفروع لا فِي الأصول!

ولكننا نقول: إن الاختلاف قائم فِي الأصول كما هو قائم فِي الفروع، وحين أذكر الخلاف؛ فأول ما أعني به: العلماء من كل الفرق، ومن ثَمَّ أذكر الخلاف بين عامة المسلمين.

ولو أننا عدنا إلَى هذه الفرق قديمها وحديثها؛ لوجدنا الخلاف نفسه قائمًا، وهو خلاف فِي الفروع كما هو فِي الأصول.

وعلى سبيل المثال لا الحصر: أذكر بِما تعتقد به طوائف كبيرة من المسلمين فِي شتى بقاع الإسلام اليوم من أن النَّبي ﷺ هو أول خلق الله، وتحتج هذه الطوائف بحديث لا أصل له فِي السنة الصحيحة: «**أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر!**».

وتجد عامة أهل العلم، يسمعون هذه الضلالة، بل وهي تعلن من رءوس المنابر، تصغي ولا تنكر، وتؤمن بذلك على الرغم من وضوح الضلالة فيه، ولا يتصدى لذلك سوى السلفيين الذين نصبوا أنفسهم لإنكار مثل هذه الخرافات، وهذه الضلالات.

وهذا الخلاف بين علماء المسلمين -كما هو ظاهر- خلاف فِي العقيدة وليس فِي فرع فقهي، والأمثلة كثيرة.

وأنتقل إلَى الخلاف القائم بين العلماء الذين يرون أنه قائم فِي الفروع فحسب، وأنه لا يضر.

ونحن أمام شقين:

- الخلاف فِي الفروع.
- الخلاف فِي الفروع لا يضر.

وكلاهُما خاطئ، وغير صحيح:

أولاً: الخلاف فِي الفروع خاطئ:

لتوضيح هذا: أذكر بالخلاف القائم بين الحنفية من جهة، وسائر المذاهب الأخرى من جهة ثانية فِي قضية الإيْمان؛ هل يزيد وينقص، أو أنه ثابت لا يزيد ولا ينقص؟

إن الخلاف فِي الحقيقة قائم بين "الماتريدية" من جهة، والأشاعرة وأهل الحديث من جهة أخرى!!

وعن هذا التساؤل يتفرع تساؤل آخر: هل الإيْمان يزيد وينقص، أو أنه ثابت لا يزيد ولا ينقص؟

والحقيقة: أن القرآن الكريم يعلن أن الإيْمان يزداد: ﴿**وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا**﴾ [المدثر:٣١]. والآيات كثيرة، وكذلك السُّنَّة؛ فهي تزيد دلالات الآيات فِي زيادة الإيْمان وضوحًا.

ومن ذلك: قول الرسول ﷺ فِي الحديث المتفق عليه: «**الإيْمان بضعٌ وستون شعبةً: أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»[1].

ومع ذلك؛ فإننا نجد الماتريدية اليوم -وهم من الناحية الفرعية حنفية- يصرحون بأن الإيْمان لا يزيد ولا ينقص، بل يذكرون عن إمامهم[2] بأنه كان يقول: "إيْمانِي كإيْمان جبريل عليه السلام[3]"، وهذا يعنِي: أن إيْمان أفجر الناس قد يكون يساوي إيْمان جبريل عليه السلام، وهذا الكلام -وإن كان خطأً- منسجم مع اعتقادهم فِي أن الإيْمان لا يقبل زيادةً ولا نقصانًا؛ وهم يقولون: إذا قلنا بأن الإيْمان

(١) متفق عليه.

(٢) هو أبو منصور الماتريدي (س. هـ).

(٣) وهذا مذهب المرجئة الضال وقولهم الباطل المبتدَع.

يزيد؛ فهو ينقص، وإذا نقص الإيْمان؛ فذلك مِمَّا يخرج صاحبه عن الإيْمان، وهذا الكلام ينسجم تَمامًا مع ما يعتقدونه من أن الإيْمان اعتقاد فقط[١].

أما اعتقاد أهل السنة من الأشاعرة[٢] وأهل الحديث فِي أن الإيْمان يزيد وينقص بحسب العمل الصالح وزيادته بالطاعة، ونقصانه بالمعصية؛ فهذا من الخلاف الذي حدث قديْمًا، واستمر إلَى اليوم.

ثُمَّ نشأ من وراء ذلك خلاف عقائدي آخر، ارتبط به كلام عملي؛ ألا وهو: **هل يقول المسلم**: أنا مؤمن إن شاء الله.

من قال: إن الإيْمان يزيد وينقص، ويقول: أنا مؤمن إن شاء الله؛ لأنه يخشى على نفسه أن يكون مقصرًا فِي أعماله الصالحة.

ومن قال: إن الإيْمان لا يزيد ولا ينقص؛ قطع بقوله: أنا مؤمن، ولا يقول: إن شاء الله؛ إذ أنه إذا قال: إن شاء الله؛ فمعنى ذلك عنده أنه شك فِي اعتقاده الذي يستقر فِي قلبه.

وبناءً على ذاك الخلاف نشأ خلاف آخر؛ وهو: هل يجوز الاستثناء، أو لا يجوز؟.

ولَمْ يقف الخلاف فِي هذه المسألة الفقهية عند جواز القول بالاستثناء فِي الإيْمان أو عدمه، بل تعداه إلَى مسألة خطيرة مزقت المسلمين شر ممزق؛ حَتَّى أدى الأمر إلَى أن يُشَبَّه المسلم بالكافر؛ فقد جاء فِي بعض كتب الحنفية سؤال: هل يجوز للمرأة الحنفية أن تتزوج من الرجل الشافعي؟

وكان الجواب بالرفض؛ لأن الحنفية يشكون فِي إيْمان الشافعيين، وقد عمل

(١) ثُمَّ يأتِي من يزعم أن شيخنا الألباني -رحِمه الله- مرجئ! وانظر لتفنيد هذه المقالة، وبيان ما فيها من جهالة: كتاب أخي فِي الله، الشيخ الفاضل علي بن حسن الحلبي -وفقه الله-: "التعريف والتنبئة بتأصيلات العلامة الألبانِي فِي مسائل الإيْمان والرد على المرجئة".

(٢) انظر -لزامًا- ما تقدم (ص ٥٥).

المسلمون بِهذه الفتوى فِي بلاد ما وراء النهرين سنين طوالاً لا يبيح أهلها لبناتِهم أن يتزوجن من الرجل الشافعي ... وظل الأمر كذلك إلَى أن جاء رجل من كبار علماء الحنفية، يعرف بـــ" مفتي الثقلين" وهو صاحب التفسير المعروف باسمه، وهو: "تفسير أبِي السعود" الذي واجه القضية وأفتى فيها بجواز أن يتزوج الحنفي من الشافعية؛ ولكن بتعليل لا أدري ماذا أقول فيه؟!.

لقد أجاز أبو السعود زواج الحنفي من الشافعية تنْزيلاً لَها منْزلة أهل الكتاب، وقياسًا على ما تُعامل به المرأة اليهودية أو النصرانية!!.

فاعجب يا أخي المسلم! إنه يجيز هذا، ولكنه لا يجيز العكس، لقد حصل هذا فِي بلاد المسلمين، وما يزال يحدث إلَى اليوم؛ فهذا رجل من عامة الناس سمعته بنفسي يبدي إعجابه -وهو حنفي المذهب- بأحد خطباء مسجد بني أمية بدمشق الشام، ويقول: لولا أنه شافعي؛ لزوجته ابنتي (!!)

وأرجو ألاّ يتسرع أحد الغافلين، ويتهمني بالتجنِي ويقول: إنَّما هذه خلافات انقضت ومضى عهدها، فإلَى هذا وأمثاله قدمت هذا المثل الذي عرفته بنفسي دليلاً على استمرار هذه الخلافات.

هذا على مستوى العرب، فإذا انتقلت إلَى المسلمين الأعاجم؛ لوجدت ما هو أَمرُّ وأقسى من هذه الخلافات العجيبة.

ثانيًا: الخلاف فِي الفروع لا يضر:

أما قولُهم: الخلاف فِي الفروع لا يضر؛ فنقول: الضرر واضح فِي كون الخلاف فِي الأصول كما أسلفت، وبناءً على هذا؛ فإن الضرر ينتقل إلَى الفروع، ويكفي ضررًا أن هذا الخلاف يسبب تفرق الأمة وتمزقها على ما وضحنا.

ونتسائل الآن: ما هو الحل؟

الحل وارد فِي ختام حديث الرسول ﷺ الذي أوردته؛ وهو: «**حَتَّى ترجعوا**

إلَى دينكم».

الحل يتمثل فِي العودة الصحيحة إلَى الإسلام بالمفهوم الصحيح الذي كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته.

وتحديدًا للإجابة عن السؤال الوارد فِي بداية هذا الرد؛ أعود فأقول: لابد أن نبدأ بالتصفية والتربية، وإن أي حركة لا تقوم على هذا الأساس لا فائدة منها إطلاقًا.

ولكي ندلل على صحة ما نذهب إليه فِي هذا المنهج؛ نعود إلَى كتاب الله الكريم، ففيه آية واحدة تدل على خطأ كل من لا يتفق معنا على أن البداية تكون بالتصفية والتربية.

يقول -تعالى-: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ**﴾ [مُحمَّد:٧]، هذه هي الآية المقصودة، وهي الَّتِي أجمع المفسرون على أن معنى "نصر الله" إنَّما هو: العمل بأحكامه، ومن ذلك -أيضًا- الإيْمان بالغيب الذي جعله ﷻ الشرط الأول للمؤمنين: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ [البقرة:٣].

فإن كان نصر الله لا يتحقق إلا بإقامة أحكامه؛ فكيف يمكننا أن ندخل فِي الجهاد عمليًّا ونحن لَمْ ننصر الله وفق ما اتفق عليه المفسرون؟!

كيف ندخل بالجهاد وعقيدتنا خراب يباب؟

كيف نجاهد وأخلاقنا تتماشى مع الفساد؟!!

لابد إذن قبل الشروع بالجهاد: من تصحيح العقيدة، وتربية النفس.

وأنا أعلم أن الأمر لن يسلم من المعارضة لمنهجنا فِي التصفية والتربية؛ فهناك من سيقول: إن القيام بالتصفية والتربية أمر يحتاج إلَى سنين طويلة!.

ولكنِّي أقول: ليس هذا هو الهام فِي الأمر، بل الهام أن ننفذ ما يأمرنا به ديننا وربنا العظيم، الهام أن نبدأ بِمعرفة ديننا أولاً، ولا يهم بعد ذلك أن يطول الطريق أو يقصر.

إنَّني أتوجه بكلامي إلَى رجال الدعوة المسلمين، وإلَى العلماء والموجهين، وأدعوهم أن يكونوا على علم تام بالإسلام الصحيح، وعلى مُحاربة لكل غفلة أو تغافل، ولكل خلاف أو تنازع: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦].

وحين نقضي على هذا التنازع وعلى هذه الغفلة، ونُحلُّ محلها الصحوة والائتلاف والاتفاق؛ نتجه إلَى تحقيق القوة المادية: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

فتحقيق القوة المادية أمر بديهي، إذن لابد من بناء مصانع الأسلحة وغيرها ... ولكن لابد قبل كل شيء من العودة الصحيحة إلَى الدين؛ كما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه فِي العقيدة، وفِي العبادة، وفِي السلوك، وفِي كل ما يتعلق بأمور الشريعة.

ولا تكاد تجد أحدًا فِي المسلمين يقوم بِهذا سوى السلفيين.

فهم الذين يضعون النقط على الحروف.

وهم وحدهم ينصرون الله بِما أمرهم به ومن تصفية وتربية تُوجِد الإنسان المسلم الصحيح.

وهم وحدهم الذين يمثلون الفرقة الناجية من النار من الفرق الثلاث والسبعين الَّتِي سئل عنها الرسول ﷺ، وقال: «هي فِي النار».

ولِهذا؛ أعود فأقول: ليس من طريق للخلاص سوى الكتاب والسنة، سوى التصفية والتربية فِي سبيلهما ... وهذا يستدعي المعرفة بعلم الحديث وتمييز الصحيح من الضعيف؛ كي لا نبنِي أحكامًا خاطئة كتلك الَّتِي وقع بِها المسلمون بكثرة؛ بسبب اعتمادهم على الأحاديث الضعيفة.

ومن ذلك مثلاً: ما تقع به بعض الدول الإسلامية، حين تطبق قانونًا إسلاميًّا -كما تسميه-، ولكنه ليس مدعومًا بالسنة المحمدية؛ فتقع فِي بعض الأخطاء القانونية والجزائية.

ومن ذلك: أن عقوبة المسلم تكون القتل حين يقتل ذميًّا ينضوي فِي لواء هذه الدولة المسلمة؛ إذا كان القتل عمدًا، وككون دية القتيل الذمي هي دية المسلم نفسها؛ إن قتله المسلم خطأً.

وهذا خلاف ما جرى فِي عهد الرسول ﷺ ... فكيف بعد هذا يمكن أن نقيم الدولة ونحن فِي ظل هذا التخبط، وهذه الأخطاء وهي البعد عن الدين؟!.

هذا على صعيد العلم؛ فإذا انتقلنا إِلَى التربية؛ وجدنا أخطاءً قاتلةً؛ فأخلاق المسلمين فِي التربية خراب يباب، ولابد من التصفية والتربية والعودة الصحيحة إِلَى الإسلام، وكم يعجبنِي فِي هذا المقام قول أحد الدعاة الإسلاميين، من غير السلفيين، ولكن أصحابه لا يعملون بِهذا القول، يقول: "أقيموا دولة الإسلام فِي قلوبكم؛ تقم دولتكم فِي أرضكم"[١].

إن أكثر الدعاة المسلمين يخطئون حين يغفلون مبدأنا هذا، وحين يقولون: إن الوقت ليس وقت التصفية والتربية، وإنَّما هو وقت التكتل والتجمع.

إذ كيف يتحقق التكتل والخلاف قائم فِي الأصول وفِي الفروع؟! إنه الضعف والتخلف الذي استشرى فِي المسلمين، ودواؤه الوحيد يتلخص فيما أسلفت فِي العودة السليمة إِلَى الإسلام الصحيح، أو فِي تطبيق منهجنا فِي التصفية والتربية[٢].

فإن قيل: ما هي البداية؟

وكيف المسير؟

---

(١) نقلاً عن "حياة الألبانِي، وآثاره العلمية، وثناء العلماء عليه"، مُحمَّد بن إبراهيم الشيباني (١/ ٣٧٧-٣٩١) باختصار يسير.

(٢) نقلاً عن "حياة الألبانِي، وآثاره العلمية، وثناء العلماء عليه"، مُحمَّد بن إبراهيم الشيباني (١/ ٣٧٧-٣٩١) باختصار يسير.

فالجواب: ما وضحه شيخنا الإمام، أسد السنة الْهُمام -رحِمه الله- فقال: "إن هذا الواقع الأليم ليس شرًّا مِمَّا كان عليه واقع العرب فِي الجاهلية حينما بعث إليهم نبينا مُحمَّد ﷺ؛ لوجود الرسالة بيننا، وكمالها، ووجود الطائفة الظاهرة على الحق، والَّتِي تَهدي به، وتدعو الناس إلَى الإسلام الصحيح: عقيدة، وعبادة، وسلوكًا، ومنهجًا، ولا شك بأن واقع أولئك العرب فِي عصر الجاهلية مماثل لما عليه كثير من طوائف المسلمين اليوم (!).

بناءً على ذلك نقول: العلاج هو ذاك العلاج، والدواء هو ذاك الدواء، فبمثل ما عالج النَّبي ﷺ تلك الجاهلية الأولى؛ فعلى الدعاة الإسلاميين اليوم -جميعهم- أن يعالجوا سوء الفهم لمعنى: "لا إله إلا الله"، ويعالجوا واقعهم بذاك العلاج والدواء نفسه؟

ومعنى هذا واضح جدًّا؛ إذا تدبرنا قول الله ﷻ: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾ [الأحزاب:٢١].

فرسولنا ﷺ هو الأسوة الحسنة فِي معالجة مشاكل المسلمين فِي عالَمِنا المعاصر، وفِي كل وقت وحين، ويقتضي ذلك مِنَّا أن نبدأ بِما بدأ به نبينا ﷺ؛ وهو إصلاح ما فسد من عقائد المسلمين أولاً، ومن عباداتِهم ثانيًا، ومن سلوكهم ثالثًا.

ولست أعنِّي من هذا الترتيب: فصل الأمر الأول بدءًا بالأهم ثُمَّ المهم ثُمَّ ما دونه، **وإنَّما أريد:** أن يهتم بذلك المسلمون اهتمامًا شديدًا كبيرًا، وأعني بالمسلمين: الدعاة، ولعل الأصح أن نقول: العلماء منهم؛ لأن الدعاة اليوم -مع الأسف الشديد- يدخل فيهم كل مسلم ولو كان على فقر مدقع فِي العلم؛ فصاروا يعدون أنفسهم دعاة إلَى الإسلام، وإذا تذكرنا تلك القاعدة المعروفة عند العلماء والعقلاء جميعًا: "فاقد الشيء لا يعطيه"؛ فإننا نعلم اليوم بأن هناك طائفة كبيرة

جدًّا يعدون بالملايين من المسلمين تنصرف الأنظار إليهم حين يطلق لفظة: "الدعاة"، وأعني بهم: "جماعة الدعوة"، أو "جماعة التبليغ"[1]، ومع ذلك؛ فأكثرهم كما قال الله ﷻ : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٧].

ومعلوم من طريقة دعوتهم أنَّهم قد أعرضوا بالكلية عن الاهتمام بالأصل الأول -أو بالأمر الأهم- أعني: العبادة، والعقيدة، والسلوك، وأعرضوا عن الإصلاح الذي بدأ به الرسول ﷺ، بل بدأ به كل الأنبياء، وقد بينه الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، فهم لا يعنون بهذا الأصل الأصيل والركن الأول من أركان الإسلام -كما هو معلوم لدى المسلمين جميعًا-؛ هذا الأصل الذي قام يدعو إليه أول رسول من الرسل الكرام: نوح ﷺ قرابة ألف سنة، والجميع يعلم أن الشرائع السابقة لَمْ يكن فيها من التفصيل لأحكام العبادات والمعاملات ما هو معروف فِي ديننا هذا؛ لأنه الدين الخاتم للشرائع والأديان، ومع ذلك؛ فقد لبث نوح فِي قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يصرف وقته وجُلَّ اهتمامه للدعوة إلَى التوحيد، ومع ذلك أعرض قومه عن دعوته؛ كما بين الله ﷻ ذلك فِي مُحكم التنْزيل: ﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣].

فهذا يدل دلالة قاطعة على أن أهم شيء ينبغي على الدعاة إلَى "الإسلام الحق" الاهتمام به دائمًا؛ هو الدعوة إلَى التوحيد، وهو معنى قوله -تبارك وتعالى-: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [مُحمَّد:١٩].

هكذا كانت سنة النَّبي ﷺ عملاً وتعليمًا:

أما فعله: فلا يحتاج إلَى بحث؛ لأن النَّبي ﷺ فِي العهد المكي إنَّما كان فعله

(١) وانظر فصل الخطاب فِي هذه الجماعات والأحزاب كتابِي: "الجماعات الإسلامية فِي ضوء الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة".

ودعوته محصورة فِي الغالب فِي دعوة قومه إلَى عبادة الله لا شريك له.

وأما تعليمًا: ففي حديث أنس بن مالك ﷺ الوارد فِي "الصحيحين": أن النَّبِي ﷺ عندما أرسل معاذًا إلَى اليمن قال له: «**ليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هم أطاعوك لذلك ...**»[١].

إذن؛ قد أمر النَّبِي ﷺ أصحابه أن يبدءوا بِما بدء به، وهو: الدعوة إلَى التوحيد، ولا شك أن هناك فرقًا كبيرًا جدًّا بين أولئك العرب المشركين -من حيث إنَّهم كانوا يفهمون ما يقال لَهم بلغتهم- وبين أغلب العرب المسلمين الذين ليسوا بحاجة أن يُدعَوا إلَى أن يقولوا: لا إله إلا الله؛ لأنَّهم قائلون بِها على اختلاف مذاهبهم، وطرائقهم، وعقائدهم، فكلهم يقولون: لا إله إلا الله؛ لكنهم فِي الواقع بحاجة إلَى أن يفهموا -أكثر- معنى هذه الكلمة الطيبة، وهذا الفرق فرق جوهري -جدًّا- بين العرب الأولين الذين كانوا إذا دعاهم رسول الله ﷺ أن يقولوا: لا إله إلا الله يستكبرون؛ كما هو مبين فِي صريح القرآن العظيم[٢]... لماذا يستكبرون؟ لأنَّهم يفهمون: أن معنى هذه الكلمة: ألاَّ يتخذوا مع الله أندادًا، وألاَّ يعبدوا إلا الله، وهم كانوا يعبدون غيره، فهم ينادون غير الله، ويستغيثون بغير الله؛ فضلاً عن النذر لغير الله، والتوسل بغير الله، والذبح لغيره والتحاكم لسواه ... إلخ.

هذه الوسائل الشركية الوثنية المعروفة الَّتِي كانوا يفعلونَها، ومع ذلك كانوا يعلمون أن من لوازم هذه الكلمة الطيبة: "لا إله إلا الله" من حيث اللغة العربية أن يتبرءوا من كل هذه الأمور؛ لمنافاتها لمعنى: "لا إله إلا الله".

---

(١) رواه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩).

(٢) يشير إلَى قوله -تعالى-: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات:٣٥-٣٦].

أما غالب المسلمين اليوم الذين يشهدون بأن "لا إله إلا الله"؛ فهم لا يفقهون معناها جيدًا، بل لعلهم يفهمون معناها فهمًا معكوسًا ومقلوبًا تمامًا.

أضرب لذلك مثلاً: ألف بعضهم[1] رسالة في معنى: "لا إله إلا الله"؛ ففسرها: "لا رب إلا الله!!"، وهذا المعنى هو الذي كان المشركون يؤمنون به، وكانوا عليه، ومع ذلك لَمْ ينفعهم إيْمانُهم هذا؛ قال -تعالى-: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ [لقمان:٢٥]؛ فالمشركون كانوا يؤمنون بأن لِهذا الكون خالقًا لا شريك له؛ ولكنهم كانوا يجعلون مع الله أندادًا وشركاء فِي عبادته، فهم يؤمنون بأن الرب واحد؛ ولكن يعتقدون بأن المعبودات كثيرة، ولذلك رد الله -تعالى- هذا الاعتقاد الذي سماه عبادة لغيره: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾ [الزمر:٣].

لقد كان المشركون يعلمون أن قول: "لا إله إلا الله" يلزم منه التبرؤ من عبادة ما دون الله ﷻ، أما غالب المسلمين اليوم؛ فقد فسروا هذه الكلمة الطيبة: "لا إله إلا الله" بـــ: "لا رب إلا الله"، فإذا قال المسلم: "لا إله إلا الله"؛ وعبد مع الله غيره، فهو والمشركون سواءٌ عقيدةً، وإن كان ظاهره الإسلام؛ لأنه يقول لفظة: "لا إله إلا الله"؛ فهو بِهذه العبارة مسلم لفظًا ظاهرًا.

وهذا ممَّا يوجب علينا جميعًا الدعوة إلَى التوحيد، وإقامة الحجة على من جهل معنى: "لا إله إلا الله"، وهو واقع فِي خلافها؛ بخلاف المشرك؛ لأنه يأبى أن يقول: "لا إله إلا الله"؛ فهو ليس مسلمًا لا ظاهرًا ولا باطنًا؛ فأما جماهير المسلمين اليوم هم مسلمون؛ لأن الرسول ﷺ قال: «**فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالَهم إلا بحقها، وحسابُهم على الله**»[2].

(١) هو الشيخ مُحمَّد الهاشمي، أحد شيوخ "الطريقة الشاذلية" فِي سورية قبل خمسين سنة.

(٢) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

لذلك؛ فإنِّي أقول كلمة -وهي نادرة الصدور منِّي-؛ وهي: إن واقع كثير من المسلمين اليوم شرٌّ مِمَّا كان عليه عامة العرب فِي الجاهلية الأولى؛ من حيث سوء الفهم لمعنَى هذه الكلمة الطيبة؛ لأن المشركين العرب كانوا يفهمون، ولكنهم لا يؤمنون، أما غالب المسلمين اليوم؛ فإنَّهم يقولون ما لا يعتقدون، يقولون "لا إله إلا الله"، ولا يؤمنون -حقًّا- بِمعناها[1].

ولذلك، فأنا أعتقد أن أول واجب على الدعاة المسلمين -حقًّا- هو: أن يدندنوا حول هذه الكلمة، وحول بيان معناها بتلخيص، ثُمَّ بتفصيل لوازم هذه الكلمة الطيبة: بالإخلاص لله ﷻ فِي العبادات بكل أنواعها؛ لأن الله ﷻ لَما حكى عن المشركين قولهم: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾ [الزمر:٣] جعل كل عبادة تُوجَّه لغير الله كفرًا بالكلمة الطيبة: "لا إله إلا الله".

لِهذا أنا أقول اليوم: لا فائدة مطلقًا من تكتيل المسلمين ومن تجميعهم، ثُمَّ تركهم فِي ضلالِهم دون فهم هذه الكلمة الطيبة، وهذا لا يفيدهم فِي الدنيا قبل الآخرة.

نحن نعلم قول النَّبِي ﷺ: «**من مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه؛ حَرَّمَ الله بدنه على النار**»، وفِي رواية أخرى: «**دخل الجنة**»[2]؛ فيمكن ضمان دخول الجنة لِمن قالها مخلصًا، حَتَّى لو كان بعد لأْيٍ وعذاب يَمس القائل.

والمعتَقِد الاعتقاد الصحيح لِهذه الكلمة؛ فإنه قد يعذب بناءً على ما ارتكب واجترح من المعاصي والآثام؛ ولكن سيكون مصيره فِي النهاية دخول الجنة، وعلى

(١) يعبدون القبور، ويذبحون لغير الله، ويدعون الأموات، وهذا واقع وحقيقة ما تعتقده الرافضة والصوفية، وأصحاب الطرق؛ فالحج إلَى القبور، وبناء المشاهد الشركية، والطواف عليها، والاستغاثة بالصالحين، والحلف بِهم عقائد ثابتة عندهم.

(٢) "الصحيحة" (٢٣٥٥).

العكس من ذلك؛ من قال هذه الكلمة الطيبة بلسانه، ولَمَّا يدخل الإيْمان إلَى قلبه؛ فذلك لا يفيده شيئًا فِي الآخرة، قد يفيده فِي الدنيا النجاة من القتال ومن القتل إذا كان للمسلمين قوة وسلطان، وأما فِي الآخرة؛ فلا يفيده شيئًا إلا إذا كان قائلاً لَها وهو يفهم معناها أولاً، ومعتقدًا لِهذا المعنى ثانيًا؛ لأن الفهم وحده لا يكفي إلا إذا اقترن مع الفهم الإيْمان بِهذا المفهوم.

وهذه النقطة؛ أظن أن أكثر الناس عنها غافلون! وهي: لا يلزم من الفهم الإيْمان، بل لابد أن يقترن كلٌّ من الأمرين مع الآخر حَتَّى يكون مؤمنًا، ذلك لأن كثيرًا من أهل الكتاب من -اليهود والنصارى- كانوا يعرفون أن مُحمَّدًا ﷺ رسول صادق، فيما يدعيه من الرسالة والنبوة، ولكن مع هذه المعرفة الَّتِي شهد لَهم بِها ربنا ﷻ حين قال: ﴿**يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ**﴾ [البقرة:١٤٦]. ومع ذلك هذه المعرفة ما أغنت عنهم من الله شيئًا ... لماذا؟ لأَنَّهم لَمْ يصدقوه فيما يدعيه من النبوة والرسالة، ولذلك؛ فإن الإيْمان تسبقه المعرفة ولا تكفي وحدها، بل لابد أن يقترن مع المعرفة الإيْمان والإذعان؛ لأن المولى ﷻ يقول فِي محكم التنْزيل: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ**﴾ [مُحمَّد:١٩].

وعلى هذا؛ فإذا قال المسلم: "لا إله إلا الله" بلسانه؛ فعليه أن يضم إلَى ذلك معرفة هذه الكلمة بإيْجاز، ثُمَّ بالتفصيل، فإذا عرف وصدَّق وآمن؛ فهو الذي يصدُق عليه تلك الأحاديث الَّتِي ذكرت بعضها آنفًا.

ومنها قوله ﷺ -مشيرًا إلَى شيء من التفصيل الذي ذكرته آنفًا-: «**من قال لا إله إلا الله؛ نفعته يومًا من دهره**»[١]؛ أي: كانت هذه الكلمة الطيبة بعد معرفة معناها -منجية له من الخلود فِي النار- وهذا أكرره؛ لكي يرسخ فِي الأذهان، وقد لا يكون قد قام بِمقتضاها من كمال العمل الصالح، والانتهاء عن المعاصي؛

(١) "السلسلة الصحيحة" (١٩٣٢).

ولكنه سلم من الشرك الأكبر، وقام بِما يقتضيه ويستلزم شرط الإيْمان من الأعمال القلبية والظاهرية -حسب اجتهاد بعض أهل العلم، وفيه تفصيل ليس هذا محل بسطه[١]- وهو تحت المشيئة.

وقد يدخل النار جزاء ما ارتكب أو فعل من المعاصي، أو أَخَلَّ ببعض الواجبات، ثُمَّ تنجيه هذه الكلمة الطيبة، أو يعفو الله عنه بفضل منه وكرم، وهذا معنى قوله ﷺ المتقدم ذكره: «**من قال لا إله إلا الله؛ نفعته يومًا من دهره**».

أما من قالها بلسانه ولَمْ يفقه معناها، أو فقه معناها؛ ولكنه لَمْ يؤمن بِهذا المعنى؛ فهذا لا ينفعه قوله: "لا إله إلا الله"؛ إلا فِي العاجلة إذا كان يعيش فِي ظل الحكم الإسلامي، وليس فِي الآجلة.

لذلك لابد من التركيز على الدعوة إلَى التوحيد فِي كل مجتمع أو تكتل إسلامي، يسعى -حقيقة وحثيثًا- إلَى ما تدندن به كل الجماعات الإسلامية أو جُلُّها، وهو: تحقيق المجتمع الإسلامي، وإقامة الدولة المسلمة الَّتِي تحكم بِما أنزل الله على أي أرض لا تحكم بِما أنزل الله، هذه الجماعات -أو هذه الطوائف- لا يمكنها أن تحقق هذه الغاية -الَّتِي أجْمعوا على تحقيقها، وعلى السعي حثيثًا إلَى جعلها حقيقة واقعية- إلا بالبدء بِما بدأ به الرسول ﷺ.

وأعيد التنبيه؛ بأنَّنِي لا أعنِي الكلام فِي بيان الأهم فالمهم وما دونه: على أن يقتصر الدعاة فقط على الدعوة إلَى هذه الكلمة الطيبة، وفهم معناها، بعد أن أتم الله ﷻ علينا النعمة بإكماله لدينه؛ بل لابد لِهؤلاء الدعاة أن يحملوا الإسلام كُلاًّ لا يتجزأ.

وأنا حين أقول هذا بعد ذلك البيان الذي خلاصته: أن يهتم الدعاة الإسلاميون حقًّا بأهم ما جاء به الإسلام، وهو تفهيم المسلمين العقيدة الصحيحة النابعة من

---

(١) هو عقيدة السلف الصالح، وهي الحد الفاصل بيننا وبين الخوارج والمرجئة (س. هـ).

الكلمة الطيبة: "لا إله إلا الله" -أريد أن استرعي النظر إلَى أن هذا البيان لا يعني أن يفهم المسلم فقط أن معنى "لا إله إلا الله": هو لا معبود بحق فِي الوجود إلا الله فقط! بل هذا يستلزم -أيضًا- أن يفهم العبادات الَّتِي ينبغي أن يُعبد ربنا ﷻ بِها، ولا يُوجِّه شيئًا منها لعبد من عباد الله -تبارك وتعالى-، فهذا التفصيل لابد أن يقترن بيانه -أيضًا- بذلك المعنى الموجز للكلمة الطيبة.

ويحسن أن أضرب مثلاً؛ لأن البيان الإجمالي لا يكفي.

أقول: إن كثيرًا من المسلمين الموحدين حقًّا، والذين لا يوجهون عبادة من العبادات إلَى غير الله ﷻ، ذهنهم خالٍ من كثير من الأفكار والعقائد الصحيحة الَّتِي جاء ذكرها فِي الكتاب والسنة؛ فكثير من هؤلاء الموحدين يمرون على كثير من الآيات، وبعض الأحاديث الَّتِي تتضمن عقيدة، وهم غير منتبهين إلَى ما تضمنته، مع أنَّها من تمام الإيْمان بالله ﷻ.

خذوا مثلاً: عقيدة الإيْمان بعلو الله ﷻ على خلقه، أنا أعرف بالتجربة أن كثيرًا من إخواننا الموحدين السلفيين يعتقدون معنا بأن الله ﷻ على العرش استوى دون تأويل، ودون تكييف، ولكنهم حين يأتيهم معتزليون عصريون، أو جهميون عصريون، أو ماتريدي أو أشعري ويلقي إليه شبهة قائمة على ظاهر آية لا يفهم معناها الموسوس ولا الموسوَس إليه؛ فيحار فِي عقيدته، ويضل عنها بعيدًا ... لماذا؟ لأنه لَمْ يتلق العقيدة الصحيحة من كل الجوانب الَّتِي تعرض لبيانها كتاب ربنا ﷻ وحديث نبينا مُحمَّد ﷺ، فحينما يقول المعتزلي المعاصر: الله ﷻ يقول: ﴿**ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَآءِ**﴾ [الملك:١٦]. وأنتم تقولون: إن الله فِي السماء، وهذا معناه: أنكم جعلتم معبودكم فِي ظرف؛ هو السماء المخلوقة، فإنه يلقي شبهة على من أمامه.

أريد من هذا المثال: أن أبين أن عقيدة التوحيد بكل لوازمها ومتطلباتِها

ليست واضحة -للأسف- فِي أذهان كثير مِمن آمنوا بالعقيدة السلفية نفسها؛ فضلاً عن الآخرين الذين اتبعوا العقائد الأشعرية أو الماتريدية أو الجهمية فِي مثل هذه المسألة.

فأنا أرمي بِهذا المثال إلَى: أن المسألة ليست بِهذا اليسر الذي يصوره اليوم بعض الدعاة الذين يلتقون معنا فِي الدعوة إلَى الكتاب والسنة، والسبب ما سبق بيانه من الفرق بين جاهلية المشركين الأولين حينما كانوا يُدعون ليقولوا: "لا إله إلا الله" فيأبون؛ لأنَّهم يفهمون معنَى هذه الكلمة الطيبة، وبين أكثر المسلمين المعاصرين اليوم حينما يقولون هذه الكلمة؛ ولكنهم لا يفهمون معناها الصحيح.

هذا الفرق الجوهري هو الآن متحقق فِي مثل هذه العقيدة، وأعنِي بِها: علو الله ﷻ على مخلوقاته كلها؛ فهذا يحتاج إلَى بيان، ولا يكفي أن يعتقد المسلم: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه:٥]. «**ارحموا من فِي الأرض يرحمكم من فِي السماء**»[1] دون أن يعرف أن كلمة "فِي" الَّتِي وردت فِي هذا الحديث ليست ظرفية، وهي مثل "فِي" الَّتِي وردت فِي قوله -تعالى-: ﴿**ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَآءِ**﴾ [الملك:١٦]؛ لأن "فِي" هنا بِمعنَى "على"، والدليل على ذلك كثير جدًّا؛ فمن ذلك: الحديث السابق المتداول بين ألسنة الناس، وهو بمجموع طرقه -والحمد لله- صحيح.

ومعنى قوله ﷺ: «**ارحموا من فِي الأرض**». لا يعنِي: الحشرات والديدان الَّتِي هي فِي داخل الأرض، وإنَّما من على الأرض؛ من إنسان وحيوان، وهذا مطابق لقوله ﷺ: «**يرحمكم من فِي السماء**»؛ أي: على السماء، فمثل هذا التفصيل لابد للمستجيبين لدعوة الحق أن يكونوا على بينة منه، ويقرب هذا حديث الجارية، وهي راعية غنم -وهو مشهور معروف- حينما سألها رسول الله ﷺ: «**أين الله؟**،

(١) "الصحيحة" (٩٢٥).

فقالت له: **في السماء**»[١].

لو سألت اليوم كبار شيوخ الأزهر: أين الله؟ لقالوا لك: في كل مكان! بينما الجارية أجابت بأنه في السماء، وأقرها النَّبي ﷺ ... لماذا؟

لأنَّها أجابت على الفطرة، وكانت تعيش في بيئة سلفية لَمْ تتلوث بأي بيئة سيئة؛ لأنَّها تخرجت -كما يقولون اليوم- من مدرسة الرسول ﷺ.

هذه المدرسة لَمْ تكن خاصة ببعض الرجال، ولا ببعض النساء، وإنَّما كانت مُشاعة بين الناس، وتضم الرجال والنساء، وتعم المجتمع بأكمله، ولذلك عرفت راعية الغنم العقيدة؛ لأنَّها لَمْ تتلوث بأي بيئة سيئة، عرفت العقيدة الصحيحة الَّتي جاءت في الكتاب والسنة، وهو ما لَمْ يعرفه كثير ممن يدعي العلم بالكتاب والسنة؛ فلا يعرف أين ربه! مع أنه مذكور في الكتاب والسنة.

واليوم أقول: لا يوجد شيء من هذا البيان وهذا الوضوح بين المسلمين، بحيث لو سألت راعي أمة أو جماعة؛ فإنه قد يحار في الجواب، كما يحار الكثيرون اليوم؛ إلا من رحم الله، وقليلٌ ما هم!.

إذن؛ فالدعوة إلَى التوحيد وتثبيتها في قلوب الناس تقتضي منا ألاَّ نَمُرَّ بالآيات دون تفصيل كما في العهد الأول؛ لأنَّهم:

أولاً: كانوا يفهمون العبارات العربية بيسر.

وثانيًا: لأنه لَمْ يكن هناك انحراف وزيغ في العقيدة نبع من الفلسفة، وعلم الكلام؛ فقام ما يعارض العقيدة السليمة، فأوضاعنا اليوم تختلف تمامًا عما كان عليه المسلمون الأوائل؛ فلا يجوز أن نتوهم بأن الدعوة إلَى العقيدة الصحيحة هي اليوم من اليسر كما كان الحال في العهد الأول.

وأُقَرِّبُ هذا في مَثَلٍ لا يختلف فيه اثنان، ولا ينتطح فيه عَنْزان -إن شاء

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي ﷺ.

الله تعالى-:

من اليسر المعروف حينئذٍ أن الصحابِي يسمع الحديث من رسول الله ﷺ مباشرة، ثُمَّ التابعي يسمع الحديث من الصحابِي مباشرة، وهكذا نقف عند القرون الثلاثة المشهود لَها بالخيرية.

ونسأل: هل كان هناك شيء اسمه علم الحديث؟

الجواب: لا.

وهل هناك شيء اسمه علم الجرح والتعديل؟

الجواب: لا.

أما الآن؛ فهذان العلمان لابد منهما لطالب العلم، وهُما من فروض الكفاية(١)؛ وذلك لكي يتمكن العالم اليوم من معرفة الحديث إن كان صحيحًا أو ضعيفًا؛ فالأمر لَمْ يعد ميسرًا سهلاً؛ كما كان ذلك ميسرًا للصحابِي؛ لأن الصحابِي كان يتلقى الحديث من الصحابة الذين زُكُّوا بشهادة الله ﷻ لَهم، فما كان يومئذٍ ميسورًا ليس ميسورًا اليوم من حيث صفاء العلم، وثقة مصادر التلقي؛ لِهذا لابد من ملاحظة هذا الأمر والاهتمام به كما ينبغي مِمَّا يتناسب مع المشاكل المحيطة بنا اليوم بصفتنا مسلمين، والَّتِي لَمْ تحط بالمسلمين الأولين من حيث التلوث العقدي الذي سبب إشكالات وأوجد شبهات من أهل البدع المنحرفين عن العقيدة الصحيحة ومنهج الحق تحت مسميات كثيرة، ومنها الدعوة إلَى الكتاب والسنة فقط؛ كما يزعم ذلك ويدعيه المنتسبون إلَى علم الكلام.

ويحسن بنا هنا: أن نذكر بعض ما جاء فِي الأحاديث الصحيحة فِي ذلك،

---

(١) هذا هو الضابط العلمي لِهذين العلمين، ولذلك لَمْ يرسخ فيهما سوى آحاد على مر العصور. ومن المؤسف المبكي أن هذين العلمين أصبحا مرتعًا للكل ناعق وبدعي مارق ... لكن نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

ومنها: أن النَّبي ﷺ قال: «**للواحد منهم أجر خَمسين**، قالوا: منا يا رسول الله أو منهم؟! قال: **منكم**»[1].

وهذا من نتائج الغربة الشديدة للإسلام اليوم الَّتِي لَمْ تكن فِي الزمن الأول، ولا شك أن غربة الزمن الأول كانت بين شرك صريح وتوحيد خالٍ من كل شائبة، بين كفر بواحٍ وإيْمان صادق، أما الآن؛ فالمشكلة بين المسلمين أنفسهم؛ فأكثرهم توحيده مليء بالشوائب، ويوجه العبادات إلَى غير الله، ويدعي الإيْمان؛ هذه القضية ينبغي الانتباه لَها أولاً.

وثانيًا: لا ينبغي أن يقول بعض الناس: إننا لابد من الانتقال إلَى مرحلة أخرى غير مرحلة التوحيد، وهي: العمل السياسي؛ لأن الإسلام دعوته دعوة حق أولاً؛ فلا ينبغي أن نقول: نَحن عرب والقرآن نزل بلغتنا، مع تذكيرنا أن العرب اليوم عكس الأعاجم الذين استعربوا؛ بسبب بُعدهم عن لغتهم، وهذا ما أبعدهم عن كتاب ربِّهم وسنة نبيهم.

فهب أننا -نَحن العرب- قد فهمنا الإسلام فهمًا صحيحًا، فليس من الواجب علينا بأن نعمل عملاً سياسيًّا، ونُحرك الناس تَحريكًا سياسيًّا، ونشغلهم بالسياسة عما يَجب عليهم الاشتغال به؛ من فهم الإسلام: العقيدة، والعبادة، والمعاملة، والسلوك، فأنا لا أعتقد أن هنالك شعبًا يُعد بالملايين قد فهم الإسلام فهمًا صحيحًا؛ أعني: العقيدة، والعبادة، والسلوك، ورُبِّي عليها.

ولذلك؛ نَحن ندندن أبدًا ونركز دائمًا حول النقطتين الأساسيتين اللتين هما قاعدة التغيير الحق؛ وهما: "التصفية والتربية"؛ فلابد من الأمرين معًا؛ التصفية والتربية، فإن كان هناك نوع من التصفية فِي بلد؛ فهو العقيدة، وهذا -بِحد ذاته- يُعدُّ عملاً كبيرًا وعظيمًا، أما العبادة؛ فتحتاج إلَى أن تتخلص من المذهبية

---

(١) "الصحيحة" (٤٩٤).

الضيقة والعمل على الرجوع إلَى السنة الصحيحة، فقد يكون هناك علماء أجلاء فهموا الإسلام فهمًا صحيحًا من كل الجوانب؛ لكني لا أعتقد أن فردًا أو اثنين، أو ثلاثة، أو عشرة، أو عشرين يمكنهم أن يقوموا بواجب التصفية، تصفية الإسلام من كل ما دخل فيه؛ سواء فِي العقيدة، أو العبادة، أو السلوك، إنه لا يستطيع أن ينهض بهذا الواجب أفراد قليلون يقومون بتصفية ما علق به من كل دخيل ويُربوا مَنْ حولَهم تربية صحيحة سليمة؛ فالتصفية والتربية الآن مفقودتان.

ولذلك سيكون للتحرك السياسي فِي أي مجتمع إسلامي لا يحكم بالشرع آثار سيئة قبل تحقيق هاتين القضيتين الهامتين، أما النصيحة؛ فهي تحل محل التحرك السياسي فِي أي بلد يحكم بالشرع من خلال المشورة أو من خلال إبدائها بالتِي هي أحسن بالضوابط الشرعية بعيدًا عن لغة الإلزام، أو التشهير؛ فالبلاغ يقيم الحجة، ويُبرئ الذمة.

ومن النصح: أن نشغل الناس فيما ينفعهم؛ بتصحيح العقيدة، والعبادة، والسلوك، والمعاملات.

وقد يظن بعضهم أننا نريد تحقيق التربية والتصفية فِي المجتمع الإسلامي كله!

هذا ما لا نفكر فيه، ولا نحلم به فِي المنام؛ لأن هذا تحقيقه مستحيل، ولأن الله ﷻ يقول فِي القرآن الكريم: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ**﴾ [هود:١١٨].

وهؤلاء لا يتحقق فيهم قول ربنا -تعالى- هذا إلا إذا فهموا الإسلام فهمًا صحيحًا، وربُّوا أنفسهم وأهليهم ومن كان حولَهم على هذا الإسلام الصحيح.

فالاشتغال -الآن- بالعمل السياسي مشغلة، مع أننا لا ننكره؛ إلا أننا نؤمن بالتسلسل الشرعي المنطقي فِي آنٍ واحد: نبدأ بالعقيدة، ونُثنِّي بالعبادة، ثُمَّ بالسلوك، تصحيحًا وتربية، ثُمَّ لابد أن يأتِي يوم ندخل فيه فِي مرحلة السياسة بِمفهومها الشرعي؛

لأن السياسة معناها: إدارة شئون الأمة.

من الذي يدير شئون الأمة؟

ليس زيدًا، وبكرًا، وعَمْرًا؛ مِمَّن يؤسس حزبًا، أو يترأس حركة، أو يوجه جماعة!.

هذا الأمر خاص بولي الأمر؛ الذي يُبايَع من قبل المسلمين، هذا هو الذي يجب عليه معرفة سياسة الواقع وإدارته، فإذا كان المسلمون غير متحدين -كحالنا اليوم-؛ فيتولى ذلك كل ولي أمر حسب حدود سلطاته، أما أن نشغل أنفسنا فِي أمور لو افترضنا أننا عرفناها حق المعرفة؛ فلا تنفعنا معرفتنا هذه؛ لأننا لا نتمكن من إدارتِها، ولأننا لا نملك القرار لإدارة الأمة، وهذا وحده عبث لا طائل تحته.

ولنضرب مثلاً: الحروب القائمة ضد المسلمين فِي كثير من بلاد الإسلام، هل يفيد أن نشعل حماسة المسلمين تجاهها ونَحن لا نملك الجهاد الواجب إدارته من إمام مسئول عُقدت له البيعة؟!.

لا فائدة من هذا العمل، ولا نقول: إنه ليس بواجب، ولكننا نقول: إنه أمر سابق لأوانه، ولذلك؛ فعلينا أن نشغل أنفسنا وأن نشغل غيرنا مِمن ندعوهم إلَى دعوتنا؛ بتفهيمهم الإسلام الصحيح، وتربيتهم تربية صحيحة، أما أن نشغلهم بأمور حماسية وعاطفية؛ فذلك مِمَّا سيصرفهم عن التمكين فِي فهم الدعوة الَّتِي يجب أن يقوم بِها كل مكلف من المسلمين؛ كتصحيح العقيدة، وتصحيح العبادة، وتصحيح السلوك، وهي من الفروض العينية الَّتِي لا يُعذَر المقصر فيها.

وأما الأمور الأخرى؛ فبعضها يكون من الأمور الكفائية؛ كمثل ما يسمى اليوم بــ"فقه الواقع"، والاشتغال بالعمل السياسي الذي هو من مسئولية من لَهم الحل العقد؛ الذين بإمكانِهم أن يستفيدوا من ذلك عمليًّا، أما أن يعرفه بعض الأفراد الذين ليس بأيديهم حل ولا عقد، ويشغلوا جُمهور الناس بالمهم عن

الأهم؛ فذلك مِمَّا صرفهم عن المعرفة الصحيحة! وهذا ما نلمسه لمس اليد فِي كثير من مناهج الأحزاب والجماعات الإسلامية اليوم، حيث نعرف أن بعضهم انصرف عن تعليم الشباب المسلم المتكتل والملتف حول هؤلاء الدعاة من أجل أن يتعلم ويفهم العقيدة الصحيحة، والعبادات الصحيحة، والسلوك الصحيح، وإذا ببعض هؤلاء الدعاة ينشغلون بالعمل السياسي، ومحاولة الدخول فِي البرلمانات الَّتِي تحكم بغير ما أنزل الله؛ فصرفهم هذا عن الأهم، واشتغلوا بِما ليس مُهمًّا فِي هذه الظروف القائمة الآن.

أما براءة ذمة المسلم أو مساهمته فِي تغيير هذا الواقع الأليم؛ فنقول: كلٌّ من المسلمين بحسبه، العالِم منهم يجب عليه ما لا يجب على غير العالِم، لقد أكمل الله النعمة بكتابه، وجعله دستورًا للمؤمنين به، ومن ذلك قوله -تعالى-: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأنبياء:٧، والنحل:٤٣]؛ فالله ﷻ قد جعل المجتمع الإسلامي قسمين: عالِمًا، وغير عالِم، وأوجب على كل منهما ما لَمْ يوجبه على الآخر، فعلى الذين ليسوا بعلماء أن يسألوا أهل العلم، وعلى العلماء أن يجيبوهم عما سُئلوا عنه؛ فالواجبات -من هذا المنطلق- تختلف باختلاف الأشخاص؛ فالعالِم اليوم عليه أن يدعو إِلَى دعوة الحق فِي حدود الاستطاعة، وغير العالم عليه أن يسأل عما يهمه بحق نفسه أو من كان راعيًا له؛ كزوجة، أو ولد، أو نحوه؛ فإذا قام المسلم -من كلا الفريقين- بِما يستطيع؛ فقد نجا؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ [البقرة:٢٨٦].

نَحن -مع الأسف- نعيش فِي مأساة أَلَمَتْ بالمسلمين، لا يعرف التاريخ لَها مثيلاً، وهي تداعي الكفار على المسلمين؛ كما أخبر النَّبِي -عليه الصلاة والسلام- فِي مثل حديثه المعروف والصحيح: «**تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إِلَى قصعتها،** قالوا: أَمِن قلة نَحن يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: **لا، أنتم يومئذٍ**

كثير؛ ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينْزعن الله الرهبة من صدور عدوكم، وليقذفن فِي قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟! قال: **حب الدنيا، وكراهية الموت»**.

فواجب العلماء إذن: أن يجاهدوا فِي "التصفية والتربية"، وذلك بتعليم المسلمين التوحيد الصحيح، وتصحيح العقائد والعبادات والسلوك؛ كل حسب طاقته، وفِي البلاد الَّتِي يعيش فيها؛ لأنَّهم لا يستطيعون القيام بجهاد اليهود فِي صف واحد ما داموا كحالنا اليوم؛ متفرقين لا يجمعهم بلد واحد، ولا صف واحد؛ فإنَّهم لا يستطيعون القيام بمثل هذا الجهاد لصد الأعداء الذين تداعوا عليهم؛ ولكن عليهم أن يتخذوا كل وسيلة شرعية بإمكانهم أن يتخذوها؛ لأننا لا نملك القدرة المادية، ولو استطعنا؛ فإننا لا نستطيع أن نتحرك فعلاً؛ لأن هناك حكومات وقيادات وحكامًا فِي كثير من بلاد المسلمين يتبنون سياسات لا تتفق مع السياسة الشرعية -مع الأسف الشديد-.

لكننا نستطيع أن نحقق -بإذن الله تعالى- هذين الأمرين العظيمين اللذين ذكرتُهما آنفًا، وهما: "التصفية والتربية"، وحينما يقوم الدعاة المسلمون بِهذا الواجب المهم جدًّا فِي بلد لا يتبنى سياسة لا تتفق مع السياسة الشرعية، ويجتمعون على هذا الأساس؛ فأنا أعتقد -يومئذٍ- أنه سيصدق عليهم قول الله ﷻ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللهِ﴾ [الروم:٤-٥].

إذن؛ واجب كل مسلم أن يعمل ما باستطاعته، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وليس هناك تلازم بين إقامة التوحيد الصحيح والعبادة الصحيحة وبين إقامة الدولة الإسلامية فِي البلاد الَّتِي لا تحكم بِما أنزل الله؛ لأن أول ما يحكم بِما أنزل الله -فيه- هو إقامة التوحيد.

وهناك -بلا شك- أمور خاصة وقعت فِي بعض العصور؛ وهي: أن تكون العزلة خيرًا من المخالطة، فيعتزل المسلم فِي شِعْب من الشعاب يعبد ربه، ويكف من شر

الناس إليه، وشره إليهم، هذا الأمر قد جاءت فيه أحاديث كثيرة جدًّا، وإن كان الأصل؛ كما جاء فِي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: **«المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم؛ خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم»**(١).

فالدولة المسلمة -بلا شك- وسيلة لإقامة حكم الله فِي الأرض، وليست غاية بحد ذاتِها.

ومن عجائب بعض الدعاة: أنَّهم يهتمون بِما لا يستطيعون القيام به من الأمور، ويدعون ما هو واجب عليهم وميسور؛ وذلك بِمجاهدة أنفسهم، كما قال ذلك الداعية المسلم؛ الذي أوصى أتباعه بقوله: "أقيموا دولة الإسلام فِي قلوبكم، تقم لكم فِي أرضكم"(٢).

ومع ذلك؛ فنحن نجد كثيرًا من أتباعه يخالفون ذلك، جاعلين جُلَّ دعوتِهم إلَى إفراد الله ﷻ بالحكم، ويعبرون عن ذلك بالعبارة المعروفة: "الحاكمية لله"(٣)، ولا شك بأن الحكم لله وحده، ولا شريك له فِي ذلك، ولا فِي غيره، ولكنهم؛ منهم من يقلد مذهبًا من المذاهب الأربعة اليوم، ثُمَّ يقول -عندما تأتي السنة الصريحة الصحيحة-: هذا خلاف مذهبِي! فأين الحكم بِما أنزل الله فِي اتباع السنة؟!.

ومنهم من تجده يعبد الله على الطرق الصوفية! فأين الحكم بِما أنزل الله بالتوحيد؟!

فهم يطالبون غيرهم بِما لا يطالبون به أنفسهم (!).

---

(١) "الصحيحة" (٩٣٩).

(٢) انظر -غير مأمور- ما تقدم (ص٩٥).

(٣) جعل "الحاكمية" توحيدًا مستقلاً أو قسمًا رابعًا بدعة حزبية سياسية، وقد فندتُها وبينت أباطيل دعاتِها فِي كتابِي: "حراسة التوحيد".

إن من السهل جدًّا أن تطبق الحكم بِما أنزل الله فِي عقيدتك، فِي عبادتك، فِي سلوكك، فِي دارك، فِي تربية أبنائك، فِي بيعك، فِي شرائك، بينما من الصعب جدًّا أن تجبر أو تزيل ذلك الحاكم الذي يحكم فِي كثير من أحكامه بغير ما أنزل الله، فلماذا تترك الميسر إلَى المعسر؟!

هذا يدل على أحد شيئين:

إما أن يكون هناك سوء تربية، وسوء توجيه.

وإما أن يكون هنا سوء عقيدة تدفعهم وتصرفهم إلَى الاهتمام بِما لا يستطيعون تحقيقه عن الاهتمام بِما هو داخل فِي استطاعتهم.

فأما اليوم؛ فلا أرى إلا الاشتغال بالتصفية والتربية، ودعوة الناس إلَى صحيح العقيدة والعبادة؛ كلٌّ فِي حدود استطاعته، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا مُحمَّد وآله وسلم"[(١)]

* * * * *

(١) "التوحيد أولاً يا دعاة الإسلام" باختصار وتصرف يسيرين.

الفهارس

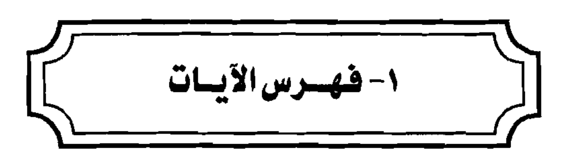
١- فهرس الآيات.

٢- فهرس الأحاديث.

٣- فهرس الآثار.

٤- فهرس الموضوعات والفوائد.





١- فهرس الآيات

سورة البقرة

سورة آل عمران

سورة النساء

سورة الأنعام

سورة الأعراف

سورة الأنفال

سورة التوبة

سورة هود

سورة يوسف

سورة الرعد

سورة النحل

سورة الإسراء

سورة طه

سورة الأنبياء

سورة الحج

سورة النور

سورة القصص

سورة العنكبوت

سورة الروم

سورة لقمان

سورة الأحزاب

سورة السجدة

سورة الصافات

سورة الزمر

سورة الشورى

سورة محمد

سورة القمر

سورة الحديد

سورة الحشر

سورة الملك

سورة القلم

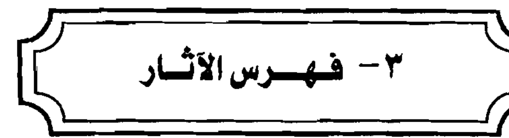
سورة الحاقة

سورة نوح

سورة المدثر



٢- فهرس الأحاديث



٣- فهرس الآثار

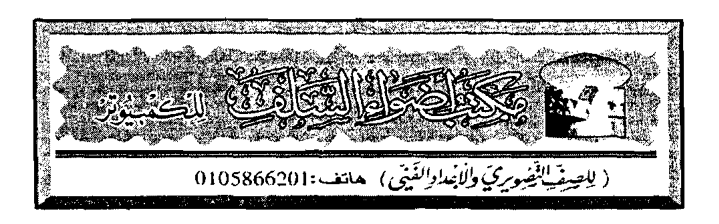
كعب بن مالك

بعض السلف



٤ - فهرس الموضوعات والفوائد

الفهـــارس


مكتب أضواء السلف للكمبيوتر
(للصف التصويري والإعداد الفني) هاتف:0105866201



في

الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح

لفضيلة الشيخ الدكتور

أبي أنس محمد موسى نصر




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



بدائع الحكم

بذكر

فوائد حديث بدائع الأمم

ويليه

معالم المنهج السلفي في التغيير

دار الإمام أحمد

EMAIL:DAR_ALEMAM_AHMAD@HOTMAIL.COM